الفصل الرابع

السيميوطيقا : التراث السوسيرى

إنها لفقرات قليلة فى كتاب « دروس فى علم اللغة العام » تلك التى أفردت للسيميوطيقا؛ وهذا بلاشك واحد من أسباب إهمال علماء اللغة عموماً متابعة مبادرة **سوسير** لتطوير علم عام للعلامات، يعين موقع الألسنية ويوجهها. ولكن المنظور السيميوطيقى كان عند **سوسير** أساساً لأى دراسة جادة للغة. وقد كتب يقول: « أليس من الواضح أن اللغة هى قبل كل شىء نظام من العلامات، وأنه ينبغى لنا من ثم أن نلجأ إلى علم العلامات » إذا كنا بصدد تحديدها تحديداً دقيقاً؟ (إنجلر ٤٧).

> **إن اللغة نظام من العلامات التى تعبر عن الأفكار، وإنها لذلك تشبه نظام الكتابة، أو أبجدية الخرس، أو الطقوس الرمزية، أو أشكال اللياقة، أو الإشارات الحربية.. إلخ، ولكنها أهم هذه النظم.**
>
> **من هنا نستطيع أن نتصور علماً يختص بدراسة حياة العلامات فى إطار المجتمع.... ونحن نسميه السيميولوجيا؛ وهى كلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية semeion «العلامة». وسوف نتعلم منه مم تتكون العلامات، وأى القوانين يحكمها. ولما كان هذا العلم لم يوجد بعد، فليس فى وسعنا أن نقرر على أى نحو سيكون، ولكنه من حقه أن يوجد، فمكانه معزز سلفاً، وليست الألسنية سوى جانب من هذا العلم العام، وسوف تكون القوانين التى تكتشفها السيميولوجيا قابلة للتطبيق فى مجال الألسنية، التى ستجد نفسها - من ثم - معلقة بميدان من الظواهر الإنسانية محدد تحديداً جيداً. (الدروس ١٦؛ دروس ٣٣).**

ولما كان البشر يحدثون ضجيجاً، ويستخدمون الإيماءات، ويستعملون تشكيلات من الأشياء والأفعال من أجل إبلاغ معنى، فإن هذا يفسح المجال لعلم من شأنه أن يحلل

هذا النوع من النشاط، وأن يجلو نظم العرف الذى يستند إليه. ويذهب سوسير إلى أنه إذا فهمت الألسنية على أنها جانب من السيميولوجيا فستنتج عن ذلك نتائج مهمة:

فتلك الجوانب من اللغة، التى قد تبدو أول الأمر بالغة الأهمية (كاستخدام الآليات الصوتية vocal mechanisms)، ستصبح اعتبارات ثانوية إذا هى اقتصر دورها على التمييز بين اللغة والنظم السيميولوجية الأخرى. ولن يقتصر هذا الإجراء على توضيح مشكلات الألسنية؛ فالطقوس، والعادات... إلخ، ستظهر - فيما نعتقد - فى ضوء جديد إذا ما تمت دراستها بوصفها علامات؛ وعندئذ سيقتنع المرء بوجوب إدراجها فى ميدان السيميولوجيا وشرحها وفقاً لقوانينها. (الدروس ١٧، دروس ٣٥).

وهكذا تقوم السيميولوجيا على أساس افتراض أنه بقدر ما تنقل الأفعال البشرية وألوان الإنتاج البشرى المعنى، وبقدر ما تؤدى وظيفتها بوصفها علامات، يتحتم أن يكون هناك نظام أساسى للأعراف وللفروق بين الأشياء يجعل هذا المعنى ممكناً؛ فحيثما كانت هناك علامات كان هناك نظام؛ وهذا ما تشترك فيه ألوان النشاط الدالة المختلفة. وإذا كان على المرء أن يحدد طبيعتها الجوهرية فقد وجب عليه ألا يتناولها فرادى بل بوصفها أمثلة للنظم السيميوطيقية. وبهذه الطريقة تعود الجوانب التى غالباً ما كانت مختفية أو مهملة فتصير واضحة، بخاصة عندما ينظر إلى الممارسات الدالة غير اللغوية على أنها «لغات».

ولكن لماذا ينبغى تصور أن الألسنية، بما هى دراسة نظام دال بعينه وإن كان غاية فى الأهمية، تقدم المثال الذى يحتذى فى دراسة نظم أخرى؟ لماذا ينبغى أن تكون الألسنية، وفقاً للتسمية التى أطلقها عليها سوسير، هى «الراعى العام» Le patron général للسيميولوجيا؟ والإجابة ترتد بنا إلى نقطة بدء مألوفة، ألا وهى الطبيعة الاعتباطية للعلامة.

لقد ذهب **سوسير** إلى أن الألسنية يمكن أن تكون نموذجاً للسيميولوجيا؛ وذلك لأن الطبيعة الاعتباطية والعرفية للعلامة فى حالة اللغة تتضح بصورة خاصة، وربما بدت العلامات غير اللغوية فى كثير من الأحيان طبيعية لدى أولئك الذين يستخدمونها، وربما تطلب الأمر منا بعض الجهد لكى نرى أن التهذيب فى فعل ما أو سوء التهذيب ليس بالضرورة خاصية ذاتية لهذا الفعل، ولكنه معنى عرفى. ولكننا إذا أخذنا بأن الألسنية نموذج فإنها سترغم المحللين على التنبه إلى الأساس العرفى للعلامات غير اللغوية التى يدرسونها.

وليس معنى هذا ان يقال إن العلامات قاطبة اعتباطية بصورة كلية؛ فهناك بعض القيود الذاتية التى تقيد المعانى التى يمكن ان تحملها الأفعال، والقيود التى تقيد – فى المقابل – فئةً الأفعال الملائمة للتعبير عن معنى بعينه. وإنه لمن الصعب تصور حضارة ما يمكن أن تكون فيها اللكمة على الفم تحية ودية، ولكن هناك نطاق بكامله من الأفعال التى يمكن – فى إطار بعض الحدود – أن تصلح صلاحية تامة لأن تكون تحيات ودية، وفى إطار هذا المجال من الإمكانات المتاحة يستطيع المرء أن يتحدث عن العلامات بوصفها عرفية واعتباطية. وقد كتب **سوسير** يقول:

> **إن كل أداة من أدوات التعبير المستخدمة فى المجتمع تقوم بصفة مبدئية على أساس معيار جمعى collective norm، أو – بعبارة أخرى – على أساس العرف. إن علامات التهذيب – مثلاً – غالباً ما تكون لها قوة تعبيرية طبيعية (يمكن أن نتذكر هنا الطريقة التى يسجد بها الرجل الصينى تسع مرات أمام الإمبراطور ليؤدى التحية)، ولكنها مع ذلك محددة بقاعدة؛ وهذه القاعدة هى التى ترشد المرء إلى استخدام تلك العلامات، وليست قيمتها الذاتية. ومن ثم فإنه فى وسعنا أن نقول إن العلامات التى تتسم بالاعتباطية التامة هى تلك التى تكون أقرب ما تكون من المثال السيميولوجى. وهذا هو السبب فى أن اللغة، وهى أكثر نظم التعبير**

تعقيداً وانتشاراً، هي كذلك أكثرها نموذجية. ولهذا السبب يمكن أن تصلح اللغة لأن تكون نموذجاً للسيميولوجيا في مجملها، وإن لم تكن اللغة سوى نظام من نظمها. (الدروس ٦٨؛ دروس ١٠٠ - ١٠١).

إن المزية في اتخاذ الألسنية نموذجاً للتحليل السيميولوجي تتمثل في الفرض الذي رسخته، وهو أن العلامات لابد أن تكون اعتباطية وعرفية.

لماذا يكتسب هذا أهمية؟ إن العلامات تبدو في المعتاد - وقد شحنت بالمعنى الملازم لها - طبيعية لدى أولئك الذين يستخدمونها، والناس ميالون إلى تأكيد أن سلوكهم الخاص إنما تحكمه اعتبارات عملية أكثر منها رمزية، كما أنهم يؤكدون أنهم يختارون الملابس «المريحة» أو «الجيدة في نوعها»، ويشترون الطعام الذي يحبون مذاقه، ويستخدمون الإيماءات التي يرونها معبرة بصورة طبيعية. وبقدر ما تكون الحضارة قوية، يكون نجاحها في التعامل بعلاماتها بوصفها علامات طبيعية. ومن ثم يتطلب التحليل السيميوطيقي نموذجاً يؤكد الأساس الحضاري العرفي للعلامات من أجل مقاومة الجهود الإيديولوجية التي تجعل منها علامات طبيعية، وإذا ما بدأ المرء بافتراض أن العلامات اعتباطية، فإنه سيتجه إلى التماس نظم العرف الأساسية. وكما أن الطبيعة الاعتباطية للعلامة في الألسنية تقود المرء إلى بيان النظام الخاص بوجوه الاختلاف الوظيفية التي تنشيء العلامات، فكذلك يركز المرء في حالات أخرى على وجوه الاختلاف المهمة؛ وهي وجوه الاختلاف والتعارضات التي تحمل معنى. ما الذي يميز بين تحية مهذبة وأخرى غير مهذبة، وبين ثوب مطابق لأحدث الطرز وآخر غير مطابق؟ هنا يشرع المرء لا في دراسة العلامات المفردة، بل في دراسة منظومة من الفروق.

ميدان السيميوطيقا:

إن اقتراحات **سوسير** فيما يتصل بالسيميولوجيا لم يؤخذ بها على الفور؛ ولم يبدأ الآخرون في التحقق من أهمية مقترحاته هذه إلا عند منتصف هذا القرن، بعد مضي عدة سنين على نشر المحاضرات. ويبدو الأمر كما لو أن الحقول المعرفية المفردة كان عليها

أن تتطور بأساليبها الخاصة، وتعيد استكشاف ما توصل إليه **سوسير** من استبصارات لنفسها، قبل أن تتمكن من أن تصبح سيميوطيقية بمعنى الكلمة. والواقع أن ما يسمى الآن «بنيوية» قد ظهر عندما رأى علماء الأنثروبولوجيا، ونقاد الأدب وآخرون غيرهم أن مَثَل الألسنية يمكن أن يعينهم على تبرير ما حاولوا هم أن يصنعوا فى حقولهم المعرفية الخاصة، كذلك فإنهم عندما شرعوا فى اتخاذ الألسنية نموذجاً، أدركوا أنهم كانوا فى الحقيقة يطورون السيميولوجيا التى كان **سوسير** قد طرحها منذ زمن بعيد.

وقد بقى الأمر حتى عام ١٩٦١ عندما عرّف عالم الأنثروبولوجيا **كلود ليفى شتراوس** فى محاضرته الافتتاحية فى **الكوليج دى فرانس** علم الأنثروبولوجيا بأنه فرع من السيميولوجيا وأثنى على **سوسير** بوصفه الرائد الذى وضع أسس التصور الصحيح للأنثروبولوجيا. ولكن قبل ذلك بخمسة عشر عاماً كان **شتراوس** فى مقال له يعد فاتحة عصر بعنوان «التحليل البنيوى للألسنية والأنثروبولوجيا» قد اعتمد على مفاهيم الألسنية ومناهجها فى تأسيس بنيويته الخاصة.

وفى هذه المقالة يتحدث **ليفى شتراوس** عن نواحى التقدم التى أحرزتها الألسنية، بخاصة فى مجال الفونولوجيا، التى جعلت منها حقلاً معرفيا علميا. ويلاحظ أن الفونولوجيا لا تملك إلا أن تؤدى الدور المجدِّد نفسه للعلوم الاجتماعية، الذى تؤديه الفيزيقا النووية – مثلاً – للعلوم الصحيحة المنضبطة. وهو يطرح رأيه فى أن تَتْبع الأنثروبولوجيا المثلَ الألسنى، وتعيدَ إنتاج شىء فى حقلها الخاص يضاهى «الثورة الفونولوجية». إن الفونولوجيا تدرس العلاقات بين الألفاظ، أى نظم العلاقات، وتنتقل من دراسة الظواهر التى أدركها أو عرفها المتحدثون بلغة ما بصورة واعية، إلى «بنيتها الأساسية اللاشعورية». ومعنى هذا أنها تحاول تحديد نظم العلاقات التى لا تكون معروفة إلا فى الشعور الباطن. فما الدرس الذى يمكن أن تستخلصه الأنثروبولوجيا من هذا؟ يقول **ليفى شتراوس** إنه مَثَل على المنهج؛ فمن أجل تحليل الظواهر الدالة، ومن أجل البحث فى الأفعال والأشياء التى تحمل معنى، ينبغى أن يفترض المرء وجود نظام أساسى

من العلاقات، ويحاول رؤية ما إذا كان معنى العناصر أو الأشياء المفردة ليس نتيجة لتعارضها مع عناصر وأشياء أخرى فى نظام من العلاقات لا يدركه أبناء حضارة ما إدراكاً واعياً(١).

وقد كان **نيكولاى تروبتسكوى** Nikolai Trubetzkoy فى كتابه الخصب المسمى **«مبادىء الفونولوجيا»** (١٩٣٩) قد حدد فى إيجاز الدلالات الضمنية المنهجية للنظرية الفونولوجية فى مجال العلوم الاجتماعية، ومن ثم حقق تقدماً للسيميولوجيا التى كان **سوسير** قد طرحها. ففى الوقت الذى يعنى فيه عالم الأصوات Phonetician بخصائص الأصوات الكلامية الفعلية، يهتم عالم الأصوات اللغوية Phonologist بالملامح الفارقة التى تؤدى وظيفتها فى لغة بعينها؛ إذ يسأل عن وجوه الاختلاف الصوتية، أيها يرتبط بوجوه الاختلاف فى المعنى، وكيف ترتبط العناصر الفارقة الواحد منها بالآخر، وكيف تلتئم لتشكل الكلمات أو العبارات. ويستأنف **تروبتسكوى** مقرراً أن هذه الأعمال لا يمكن إنجازها بمناهج العلوم الطبيعية، التى تعنى بالخصائص الذاتية للظواهر الطبيعية ذاتها وليس بالملامح الفارقة التى لها أهمية اجتماعية. وبعبارة أخرى ليس فى العلوم الطبيعية شىء يتطابق مع الفارق بين **اللسان والكلام**؛ فليس فيها عادة أو نظام عرفى يكون موضوعاً للدراسة. ومن جهة أخرى تعنى العلوم الاجتماعية والإنسانية بالاستخدام الاجتماعى للأشياء المادية؛ ومن ثم يتحتم عليها التمييز بين الأشياء ذاتها، ونظام الملامح المميزة أو الفارقة الذى يمنحها المعنى والقيمة.

ويذهب **تروبتسكوى** إلى أن المحاولات التى بذلت لوصف هذه النظم تشبه العمل فى مجال الفونولوجيا. والمثل الذى يستشهد به هو دراسة الملابس، على نحو ما يمكن أن يقوم بها عالم الأنثروبولوجيا أو عالم الاجتماع؛ فكثير من ملامح الثياب البدنية ذاتها، التى قد تكون لها أهمية كبيرة لدى اللابسين، لا يكون له أهمية لدى علماء

(١) مقالة **ليڤى شتراوس** منشورة فى كتابه «الأنثروبولوجيا البنيوية» Structural Anthropology (New York: Basic Books, 1963).

الأنثروبولوجيا، الذين لا يعنون إلا بتلك الملامح التى لها أهمية اجتماعية. ومن هنا فإن طول الثوب قد يحمل قدراً كبيراً من الأهمية فى النظام الاجتماعى لحضارة ما، فى حين أن المادة التى صنع منها لا تكون لها أهمية؛ أو لنقل إننى إذا كنت أفضل لبس ثوب أصفر على لبس ثوب رمادى، فقد يكون لهذا معنى اجتماعى كبير، ولكن حقيقةَ أن لدى ميلاً قويًّا لإيثار الثياب الرمادية على الثياب البنية، أو أننى أكره المواد الصوفية، قد تكون تفضيلاً شخصيًّا ليست له أهمية اجتماعية. وكما يحاول علماء الأصوات اللغوية تحديد أى وجوه الاختلاف فى الصوت يحمل المعنى وأيها لا يحمل معنى، فكذلك قد يحاول علماء الأنثروبولوجيا أو علماء الاجتماع وهم يدرسون الملابس أن يعزلوا تلك الملامح الخاصة بالثياب التى لها أهمية اجتماعية. إنهم يحاولون إعادة بناء نظام العلاقات والفروق التى تمثلها أفراد المجتمع، والتى يبرزونها من خلال تناولهم لثياب بعينها من حيث إنها تشير إلى أسلوب حياة بعينه، أو إلى دور اجتماعى. أو موقف اجتماعى، إنهم – فى إيجاز – يهتمون بتلك الملامح التى تتحول الثياب عن طريقها إلى علامات.

إن علماء الأنثروبولوجيا أو علماء الاجتماع يحاولون – شأنهم شأن علماء اللغة – الكشف عن المعرفة الكامنة التى تعين الناس فى مجتمع بعينه على التواصل فيما بينهم، وفهم كل منهم لسلوك الآخر؛ والحقائق التى يحاولون شرحها هى الحقائق المتعلقة بالمعرفة الضمنية، كأن يُنظر إلى فعل بعينه على أنه فعل مهذب، فى حين يكون فعل آخر غير مهذب؛ أو أن ثوباً بعينه يلائم فى موقف ولا يلائم فى آخر، وهكذا؛ فحيثما كانت هناك معرفة أو كان هناك تفوق من أى نوع، كان هناك نظام يقبل الشرح. وهذا هو المبدأ الأساسى الذى يوجه عملية استنباط المجهول على أساس المعروف فى انتقالها من الألسنية إلى الحقول المعرفية الأخرى. فإذا قلنا إن المعانى التى يضفيها أبناء حضارة ما على الأشياء أو الأفعال ليست عشوائية صرفاً، فعندئذ لابد أن يكون هناك نظام سيميوطيقى للفروق والمقولات وقواعد الترابط، التى ربما داعبنا الأمل فى وصفها.

وهكذا يستطيع المرء أن يعزو إلى السيميوطيقا حقلاً واسعاً من البحث. فإذا قلنا إن كل شيء له معنى في إطار حضارةٍ ما هو علامة، وهو - من ثم - موضوع بحث سيميوطيقي، فإن السيميوطيقا ستمتد عندئذ لتشمل معظم الحقول المعرفية الخاصة بالعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.

وهكذا فإن أى ميدان من ميادين النشاط الإنساني - سواء كان هو الموسيقى، أو العمارة، أو الطبخ، أو اللياقة، أو الإعلان، أو الطرز المحدثة (المودة)، أو الأدب - يمكن مقاربته على أساس سيميوطيقي.

وربما تمثل الاعتراض المباشر على قيام السيميوطيقا الواسعة النفوذ(*)، التي حاولت بهذه الطريقة أن تبسط جناحها على عدد كبير من الحقول المعرفية الأخرى، في أن الظواهر الدالة التي يواجهها الإنسان في هذه الميادين المختلفة ليست جميعاً متشابهة. حتى لو كانت أغلبية الأشياء والفعاليات علامات فإنها ليست علامات من النمط نفسه. وهذا اعتراض مهم، يجعل من واجبات السيميوطيقا الرئيسية التمييز بين أنماط العلامة المختلفة، التي قد يتطلب الأمر دراستها بطرق مختلفة.

وقد طُرحت أشكال مختلفة من تنميط العلامات، ولكن تبرز من بينها ثلاثة أنواع أساسية تتطلب مقاربات مختلفة هي: الصورة icon، والمؤشر index، والعلامة بمعناها الصحيح (التي تسمى أحياناً الرمز symbol؛ وهي تسمية مضللة). إن العلامات قاطبة تشتمل على دال ومدلول؛ على شكل ومعنى أو معان تتعلق به؛ ولكن العلاقات بين الدال والمدلول تختلف في هذه الأنماط الثلاثة من العلامة؛ **فالصورة** تشتمل على شبه حقيقي بين الدال والمدلول. إن صورة أحد الأشخاص النصفية لا تدل على هذا الشخص الذي هي صورته عن طريق العرف الاعتباطي بقدر ما تدل عليه من خلال شبهها به. وفي حالة **المؤشر** تكون العلاقة بين الدال والمدلول سببية؛ فالدخان يعني النار، لأن النار

(*) وصف المؤلف السيميوطيقا هنا بأنها إمبرياليةimperialistic، وقد آثرنا استخدام صفة «الواسعة النفوذ» تجنباً للظلال السياسية التي ترتبط بكلمة الإمبريالية لدى القارىء العربي. (المترجم).

بصفة عامة هي سبب الدخان؛ والسحب تعني المطر، إذا كانت من ذلك النوع من السحب التي تسقط مطراً؛ وآثار الأقدام هي علامات على نمط الحيوان الذي يرجَّح أن يكون قد أحدثها. ومع ذلك ففي حالة **العلامة** بالمعنى الصحيح تكون العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية وعرفية؛ فالمصافحة بالأيدي تدل من الناحية العرفية على التحية؛ والجبن طعام ملائم بحكم العرف لإنهاء وجبة الطعام.

ما الدلالات الضمنية لهذا التقسيم الثلاثي بالنسبة إلى السيميوطيقا؟ إن النتيجة الرئيسية تتمثل في جعل العلامة بالمعنى الصحيح هي الموضوع المركزي للسيميوطيقا، وفي جعل دراسة العلامات الأخرى نشاطاً متخصصاً وثانوياً. إن دراسة الكيفية التي يمثل بها رسم أو تمثل بها صورة فوتوغرافية لفرس ما هذا الفرس ربما شكلت طرفاً من السيميوطيقا؛ ولكن يبدو أن هذا أنسب أن يكون اهتمام نظرية فلسفية في التصوير من أن يكون سيميوطيقا قائمة على أساس لغوي؛ فالواجب في السيميوطيقا أن تحدِّد العلامات التصويرية iconic signs وتشخصها؛ ولكن دراسة الصور لا ينتظر أن تكون فعالية من فعالياتها المركزية.

والمؤشرات أكثر إزعاجاً؛ فلو أن المرء وضعها في ميدان السيميوطيقا لبدا عندئذ أنها تتخذ من المعرفة البشرية قاطبة دائرة اختصاصها. ذلك بأن أي علم يحاول أن يقيم علاقات سببية بين الظواهر يمكن أن يرى بوصفه دراسة للمؤشرات، وأن يوضع – من ثم – في إطار السيميوطيقا. وعلى سبيل المثال يحاول الطب أن يربط بين الأمراض والأعراض؛ فاكتشاف أعراض المرض معناه تحديد العلامات التي تنم عن وجود ذلك المرض، ومعناه – على نحو معكوس – معرفة الشيء الذي تعد هذه الأعراض علامات عليه. كذلك يحاول علم الأرصاد الجوية، أن يقيم نظاماً من أجل أن يربط الظروف الجوية بأسبابها ونتائجها، وأن يقرأها – من ثم – بوصفها علامات؛ أي علامات على الظروف الجوية. وأيضاً فإن التنبؤ الاقتصادي يعتمد على القراءة الصحيحة للعلامات الاقتصادية. وعلم الاقتصاد هو حقل المعرفة الذي يحدد هذه العلامات، ويمكِّن المرء من

قراءتها. وفى إيجاز أقول إن هناك نطاقاً بكامله من الحقول المعرفية يحاول أن يحل شفرة العالم الطبيعى أو الاجتماعى، وإن مناهج هذه الحقول المعرفية مختلفة، وليس هناك سبب للاعتقاد بانها ستحرز كسباً جوهريًّا بانضوائها تحت لواء سيميوطيقا واسعة النفوذ.

أما العلامات بالمعنى الصحيح، حيث العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية أو عرفية، فهى – إذن – الميدان المركزى للسيميوطيقا. إنها تتطلب البحث السيميوطيقى إذا ما أريد فهم آلياتها. وفى حالة غياب الرابطة السببية بين الدال والمدلول، التى قد تعين المرء على تناول كل علامة على حدة، يتحتم على المرء أن يحاول أن يعيد بناء النظام السيميوطيقى؛ أى نظام الأعراف، الذى تشتق منه مجموعة كاملة من العلامات. ولأن العلامات المفردة على وجه التحديد لم تحدد أسبابها، فقد وجب على المرء أن يحاول إعادة بناء النظام، الذى يستطيع وحده أن يشرحها.

ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يستبعد المؤشرات كلية من ميدان السيميوطيقا؛ لأنها تشكل حالة وسطا لها طرافتها ولها أهميتها. والحقيقة أن أى مؤشر قد يستخدم بوصفه علامة عرفية. وما إن تعترف حضارة ما بالعلاقة السببية أو الإشارية بين دال ومدلول، حتى يصبح الدال المعين متحداً بمدلوله، ويمكن استخدامه فى استثارة ذلك المعنى حتى فى الحالات التى لا تشتمل على علاقة سببية. فما إن يصبح مسلماً به بصفة عامة أن الدخان يعنى النار، حتى يكون فى مقدورى استخدام الدخان الذى يصدر عن آلة تصنع الدخان للدلالة على النار، حتى وإن لم يكن الدخان فى هذه الحالة قد أحدثته نار. وهنا يستخدم المؤشر بوصفه علامة عرفية.

ويمكن – بطبيعة الحال – استخدام كثير من المؤشرات بوصفها علامات عرفية فى هذه الطريقة المسرحية؛ فإذا أُعد ممثل لأن يبدو كما لو كان مصاباً بالحصبة، فإننا نقرأ بثوره بوصفها دالة على الحصبة بطريقة عرفية، ولا نصدق أن البثور فى حالته هذه ترتبط بالحصبة ارتباطاً سببيًّا. ولكن هناك مجموعة كبيرة من المؤشرات العرفية التى تهم على

وجه الخصوص عالم السيميوطيقا لأنها تقوم بتشكيل الميثولوجيا الاجتماعية العرفية فى حضارة ما. وربما كان ما نسميه «رموز الوضع Status Symbol» أفضل مثال لهذا؛ فهذه ليست على وجه الدقة مؤشرات إلى الوضع، ولكنها رموز للوضع؛ ومع أن لها نوعاً من العلاقة السببية أو الذاتية مع الوضع الذى تدل عليه، فقد ترقت بها أعراف المجتمع إلى مكانة الرمز، كما أنها تحمل من المعنى أكثر مما قد تستتبع طبيعتها السببية أو الإشارية. وعلى هذا فإن سيارة رولزرويس هى بالتأكيد مؤشر إلى الثروة، بمعنى أن المرء لابد أن يكون ثرياً حتى يمتلك واحدة مثلها؛ ولكن العرف الاجتماعى قد جعل منها رمزاً للثروة؛ أى موضوعاً أسطورياً يدل على الثروة على نحو أكثر فى إلحاحه مما تدل عليه موضوعات أخرى قد تكون مساوية له فى غلاء ثمنها؛ فقد أفرده الاستعمال الاجتماعى من بين الموضوعات الكثيرة التى هى مؤشرات للثروة من حيث إنها جميعاً غالية الثمن – أفرده بوصفه رمزاً للثروة. والمؤكد أن السيميوطيقا التى تدرس الحياة الاجتماعية بوصفها نظاماً من العلامات سترغب فى أن يشتمل ميدانها على هذا النوع من المؤشرات العرفية(١).

كذلك فإن المؤشرات تدخل ميدان السيميوطيقا بطريقة أخرى. ذلك بأن معانى المؤشرات تتغير فى علوم بأعيانها مع أشكال المعرفة، وعلى سبيل المثال تُقرأ الأعراض الطبية وتفسَّر على نحو مختلف من حقبة زمنية إلى أخرى، حيث تتقدم المعرفة؛ فهناك تغيرات تصيب على السواء ما هو محدد بأنه أعراض والطريقة التى تفسَّر بها الأعراض. ومن ثم يصبح من الممكن للسيميوطيقا أن تدرس التغيرات فى مجال الطب بوصفها نظاماً تفسيرياً، أى طريقة فى قراءة العلامات وتحديدها، وسيكون ذلك محاولة لاستكشاف الأعراف التى تحدد الخطاب الطبى لحقبة ما أو تجعله ممكناً، وتسمح بقراءة المؤشرات. وفى هذا البحث سوف يهتم السيميوطيقى لا بالأعراض أو المؤشرات ذاتها،

(١) لمعرفة هذا الجانب من السيميوطيقا، انظر رولان بارت فى كتابه ميثولوجيات Mythologies، المنشور فى: New York: Hill & Wang 1972.، وعلى وجه الخصوص المناقشة النظرية المهمة التى اشتملت عليها المقالة الأخيرة.

ولا بالعلاقة السببية «الحقيقية» بين المؤشر والمعنى، ولكن بقراءة المؤشرات فى إطار منظومة من الأعراف.

ما ميدان السيميوطيقا إذن؟ وإلى أى مدى تمتد امبراطوريتها؟ من الواضح أن حدودها ستكون متغيرة؛ فهناك أشياء كثيرة يمكن تناولها سيميوطيقيًّا وإن لم تتطلب بالضرورة دراستها بهذه الطريقة. والواقع أنه لكى يشخص المرء ميدان السيميوطيقا ينبغى له أن يحدد فى بساطة أنواع الحالات المختلفة التى يمكنها مواجهتها.

١ – فى الصميم من العمل السيميوطيقى هناك منظومات من العلامات العرفية مستخدمة للاتصال المباشر. وهذه المنظومات تشتمل – أول ما تشتمل – على الشفرات المختلفة المستخدمة فى نقل الرسائل المؤلفة فى لغة طبيعية قائمة، كاللغة الإنجليزية. ويمكن لشفرة **مورس**، وشفرات جهاز تنظيم مرور القطارات، وطريقة **برايل** فى الكتابة، وكل الشفرات التى ابتكرت للسرية – يمكن لها أن تستخدم فى نقل رسالة إنجليزية. ثم إن هناك – ثانياً – سلسلة كاملة من الشفرات المتخصصة، المستخدمة لنقل نمط بعينه من المعلومات إلى مجموعات من الناس قد لا يشتركون فى معرفة هذه اللغة الطبيعية نفسها، كالرموز الكيميائية، والإشارات الخاصة بالمرور، وعلامات الطريق، وعلامات دمغة الفضة، والرموز الرياضية، والعلامات المستخدمة فى المطارات والقطارات.. إلخ، وأخيراً الرمزيات المبهمة الخاصة بالشفرات الشعارية أو الشفرات الكيميائية(١). وكل هذه الحالات تشتمل على علامات عرفية، قائمة على أساس شفرات صريحة. ولما كانت هذه الشفرات قد أعدت من أجل الاتصال السهل والخالى من الغموض، فقد كان هناك إجراء صريح لعملية التشفير وحل الشفرات، كالكشف عن المادة موضع البحث فى كتاب عن الشفرات. وهذه الشفرات أمثلة صريحة على النظم السيميوطيقية؛ ولكن لأنها –

(١) انظر مناقشة **مونان** لنظم كثيرة من هذا النوع فى:
Geogrges Mounin, Introduction á La Sémiologie (Paris: Minuit, 1970).

تحديداً – على هذا القدر من الوضوح، يصبح من الأمور السهلة وصف المبادىء التى أقيمت على أساسها؛ ومن ثم فإنها غالباً ما تثبت أنها تفوق فى ضآلة ما تثيره من الاهتمام ضآلة وضوحها، وأنها نظم أكثر تعقيداً، تندرج فى الصنف التالى من تصنيفنا.

٢ – والشفرات التى تفوق فى تعقيدها وضوحها هى نظم يحدث فيها الاتصال دون شك، ولكن يكون من الصعب تأسيس الشفرات التى يعتمد عليها الاتصال، كما يكون غاية فى الإبهام أو الانفتاح. وهذه هى الحال بالنسبة إلى الأدب – على سبيل المثال؛ فالمرء لكى يقرأ الأدب ويفهمه يتطلب ما هو أكثر من المعرفة باللغة التى كتب بها، ولكن التحديد الدقيق لما تمس الحاجة إليه من المعرفة التكميلية من الصعوبة بمكان. والمؤكد أن المرء لا يتناول ذلك النوع من الشفرات التى يمكن أن تفيد فيه المفاتيح أو كتب الشفرة، ومع ذلك فلأن المرء يتناول على وجه التحديد نظاماً فى الاتصال غاية فى الثراء والتعقيد، يمكن أن تكون للدراسة السيميوطيقية للأدب وللشفرات الجمالية الأخرى (كتلك الشفرات الخاصة بالتصوير والموسيقى) أهمية فائقة.

والسبب فى تعقيد هذه الشفرات المراوغ بسيط للغاية؛ فشفرات النمط الأول قد أعدت لكى توصل على نحو مباشر ودون إبهام رسائل وأفكاراً معروفة من قبل؛ فالشفرة تقدم رموزاً مختصرة للأفكار المحددة سلفاً. ولكن التعبير الجمالى يهدف إلى توصيل الأفكار، واللطائف الذهنية، والأشياء المعقدة التى لم تتشكل بعد؛ ومن هنا فإنه عندما تصبح شفرة جمالية مفهومة على وجه العموم بوصفها شفرة (بوصفها طريقة فى التعبير عن الأفكار التى سبق تشكيلها)، تميل الأعمال الفنية عندئذ إلى مجاوزتها. إنها ترتاب فيها، وتسخر منها، وتهبط بقيمتها بصفة عامة، فى الوقت الذى تستكشف فيه تحولاتها وامتداداتها الممكنة. وربما ذهب المرء إلى أن كثيراً من أهمية الأعمال الفنية يكمن فى الطرق التى تستكشف بها هذه الأعمال الشفرات وتعدل منها؛ أى الشفرات

التى يبدو أنها تستخدمها. وهذا ما يجعل البحث السيميوطيقى فى هذه النظم وثيق الصلة بالموضوع وبالغ الصعوبة على السواء.

٣ – والحالة الثالثة التى ينبغى أن تواجهها السيميوطيقا تشمل الممارسات التى قد لاتبدو للوهلة الأولى متضمنة الاتصال ولكنها تكون على درجة عالية من التشفير، كما أنها تستخدم سلسلة كاملة من الفروق لكى تخلق المعنى. والأنواع المختلفة من الطقوس ومظاهر اللياقة، وكذلك نظم العرف التى تتحكم فى الطعام والملبس، من الواضح أنها نظم سيميوطيقية؛ فتفضيل طاقم من الملابس على آخر هو توصيل لشىء ما وإن كان غير مباشر، ولكن المرء فى وسعه أن يمضى قدماً وأن يقول إن الأبنية التى نسكن فيها، والأشياء التى نشتريها، والأفعال التى نقوم بها، لها أهميتها عند السيميوطيقى، لأن كل المقولات والعمليات التى اكتسبت المعنى من خلالها هى سيميوطيقية أساساً. وليس معنى هذا أن يقال إن شراء منزل – مثلاً – هو فعل اتصال فى الدرجة الأولى أو بصورة أساسية، بل معناه لا يعدو أن الفرق بين المنازل قد اكتسب معنى عن طريق النظام السيميوطيقى، وأن المرء فى اختياره لمنزل دون غيره إنما يتعلق بالصورة التى أبرزها المنزل المعين (كوخ ريفى، أو بيت من الحجر الرملى البنى، أو بيت من الطراز الفكتورى الذى يستوعب أسرتين). وقد يختار المرء – لأسباب عملية صرف – أن يشترى منزلاً تبدو صورته غير ملائمة، ولكن المرء مع ذلك يظل منخرطاً فى نظام سيميوطيقى. والمهمة المنوطة بالمحلل فى تناوله للملبس، والأشياء المتعلقة بالتجارة، والمسليات، والمنتجات الصناعية، والأنشطة الأخرى، هى الكشف عن المعانى الضمنية التى يبدو أنها تحملها، وإعادة بناء نظام الإيحاءات التى قامت هذه المعانى على أساسها.

٤ – وأخيراً هناك الحالات التى أضعها جانباً لكونها تشتمل على مؤشرات أكثر منها علامات بمعنى الكلمة؛ وتتمثل فى الحقول المعرفية الخاصة بالعلوم الاجتماعية والطبيعية، التى تحاول أن تقيم علاقات من السبب والنتيجة بين الظواهر، والتى

يرجح أن يكون معنى الشيء أو الفعل فيها هو السابقة أو النتيجة السببية؛ أى معناها فى سياق سببى. وكما ذكرت من قبل فإن هذه النظم المعرفية على الرغم من أنها فى ذاتها ليست سيميوطيقية، لا يعنى هذا أنه يجوز للسيميوطيقى أن يصرف اهتمامه عنها. إن الموضوعات التى تدرسها هذه الحقول المعرفية ليست علامات بالمعنى الصحيح، ولكن الحقول المعرفية ذاتها، بوصفها «لغات» أو نظماً للتشكيل، يمكن دراستها بوصفها نظماً سيميوطيقية.

ويتضح لنا هذا فى حالة العلوم التى ضعفت الثقة فيها، كعلم التنجيم؛ فما دمنا لانثق فى العلاقات السببية التى يقيمها علماء التنجيم بين حركات الكواكب والأحداث التى تقع فى حياة الناس، يصبح من اليسير النظر إلى علم التنجيم على أنه نظام من الأعراف. وسوف يتساءل السيميوطيقى الذى يدرس علم التنجيم عن القواعد أو الأعراف التى استخدمها المنجمون حين كانوا يعزون المعنى إلى صور السماء، ثم ما الأعراف التى كان على المرء أن يقبلها من أجل أن يكون منجماً؟

لن نتردد فى التسليم بأننا نتناول هنا نظاماً من العلامات يمكن شرحه وتوضيحه، ولكننا فى الحقيقة إذا فكرنا فى المسألة أمكننا أن نرى أن تحليلنا السيميوطيقى لن يكون مؤثراً تأثيراً جوهريًّا إذا برهنت الكشوف المستقبلية على أن كل ما قاله المنجمون صحيح. وسوف تظل القواعد نفسها تشكل أساس الخطاب التنجيمى، سواء صدقت النبوءات التى قدمها أو كانت كاذبة. وعلى هذا يمكننا أن نمتد بحدود السيميوطيقا بعض الشيء؛ ففى وسع السيميوطيقا أن تدرس الأعراف التى تحكم خطاب أى حقل معرفى وتفسيراته، ولكن لنلاحظ ما يتضمنه هذا؛ فعند السيميوطيقى لن يكون لصدق الموضوعات فى حقل معرفى ما أو كذبها علاقة بالموضوع؛ فإذا كان كل ما يؤكده علم النبات اليوم قابلاً للدحض، فإن هذا لن يؤثر فى التحليل السيميوطيقى لأعراف علم النبات بوصفها نظاماً من العلامات؛ فعلم النبات ليس مجموعة البيانات الصحيحة المتعلقة بأنواع النبات، ولكنه نظام من الخطاب. ويمكن فى أى حقبة معينة أن تقال حقًّا أشياء كثيرة للغاية عن أنواع النبات التى لا تقع فى مجال علم النبات (كأن يقال مثلاً إن

الورود تهذب بصورة منتظمة، وإن الهندباء البرية تجتث من جذورها بصورة منتظمة)، كما أن السيميوطيقى يهتم بالأعراف التى تستبعد بعض البيانات فى مجال علم النبات وتسمح لغيرها بالدخول فيه. ومع أن بعض الحقول المعرفية (كالطب، والأرصاد الجوية، والتحليل النفسى، والتنجيم) قد تستجيب على نحو أيسر للتحليل السيميوطيقى، من حيث إنها أكثر عناية بقراءة العلامات وتفسيرها، فإن أى نظام للخطاب فى الواقع يمكن دراسته سيميولوجيا فى هذا المستوى مادام هو نفسه نظاماً من العلامات.

التحليل السيميوطيقى:

لقد أدت الألسنية دورها بوصفها نموذجاً للسيميوطيقا، ولفتت النظر - كما يذهب **سوسير** - إلى الطبيعة العرفية للعلامات والطبيعة الفارقة للمعنى. ولكن ربما صار من الواضح من خلال التنوع فى نظم العلامة التى ذكرتها أن مفاهيم التحليل اللغوى وتقنياته ربما كانت أكثر ملاءمة للبحث فى بعض النظم دون بعضها. وفى كل الحالات يميز المحلل بين **اللسان والكلام**، ويحاول أن يجاوز الأفعال أو الأشياء ذاتها إلى نظام القواعد والعلاقات الذى يمكِّنها من أن يكون لها معنى. وسيكون المرء فى معظم الحالات قادراً على تحديد العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية؛ أى العلاقات بين العناصر التى يمكن أن تأتلف لتشكل وحدات من مستوى أعلى، وعلاقات بين العناصر التى يمكن أن يحل بعضها مكان بعض، والتى يتعارض بعضها مع بعض من أجل إنتاج المعنى. ولكن تركيب الجملة فى بعض النظم يكون أضعف من أن ينشىء علاقات سياقية لا وجود لها فى الغالب؛ فعلامات المرور - مثلاً - لا تشتمل عموماً على الجمع بين أكثر من وحدة، أو إذا هى كانت تشتمل على ذلك (كما هو الشأن فى العلامات التى يدل فيها الشكل على وجود خطر وتعين الأداة نوع هذا الخطر)، فإن العلاقة السياقية تكون غاية فى البساطة وفاقدة للأهمية. وعلى نحو بديل من هذا تكون جملة التعارضات التبادلية الأولية فى بعض النظم محددة للغاية؛ ففى شفرة **مورس** - على سبيل المثال - ليس هناك سوى تعارضين اثنين: الجلبة الصوتية فى مقابل الوقف، والقصير فى مقابل الطويل. كذلك فإن مشاعر الكراهية عند ليفيتيكس تحدد قائمة

بأنواع الحيوان التى يصرح للمرء بأكلها، والتى يحرم عليه أكلها. وفى وسع المرء – مع شىء من البراعة – أن يعيد بناء نظام القواعد التى تضفى الأهمية على أنواع بعينها من الحيوان؛ ولكن هذا النظام لا ينتج سوى معنيين اثنين: نظيف وغير نظيف (بمعنى مسموح به ومحرم).

ولكن يبدو حقًّا فى معظم النظم أن هناك علاقات سياقية، وتعارضات تبادلية، وجملة متنوعة من المعانى التى يمكن أن تنتجها التعارضات والعلاقات. ففى نظام الطعام – مثلاً – يجد المرء فى المحور السياقى مجموعات ألوان الطعام التى يمكن أن تكون وجبات من أنواع مختلفة، وكل لون منها أو شريحة يمكن أن يكون واحدة من صحاف كثيرة تتعارض الواحدة منها بالتبادل مع الأخرى (لن يجمع المرء بين شواء من لحم البقر وشرائح من لحم الحمل فى وجبة واحدة، ولكن أحدهما يكون بديلاً من الآخر فى أى قائمة طعام)، وهذه الصحاف التى يكون بعضها بديلاً من بعض غالباً ما تحمل معانى مختلفة من حيث إنها توحى بدرجات مختلفة من الترف، والأناقة، وما إلى ذلك.

وتنشأ الصعوبة فى كثير من النظم السيميوطيقية من حقيقة أنها تعتمد على نظم أخرى، وعلى نظام اللغة خصوصاً، ومن ثم تصبح نظماً من «الدرجة الثانية». والأدب واحد من هذه النظم؛ فهو يتخذ اللغة أساساً، وأعرافه الإضافية هى أعراف تتعلق بالاستخدامات الخاصة للغة. ومن هنا يمكن النظر إلى العناصر البلاغية – إذا شئنا مجرد مثل – كالاستعارة والكناية والمبالغة والمجاز المرسل بوصفها عمليات فى شفرة أدبية من الدرجة الثانية. وعندما كتب شيكسبير يقول: «ولكن الصيف الأبدى لن يتبدد»، كانت كلماته علامات ذات معنى أدبى فى حدود الشفرة اللغوية للغة الإنجليزية، ولكن عنصر الاستعارة البلاغى يشكل هنا جزءاً من شفرة أدبية من الدرجة الثانية، يسمح للمرء باستخدام العلامتين اللغويتين – **الصيف الأبدى** – لكى تعنيا شيئاً شبيهاً بقولنا «إنه جمال رقيق كل الرقة حتى إنه سيبقى على الدوام فى ذروته». وعلاوة على هذا فإن العرف فى شعر الحب يصنع هذا النوع من الإطراء المبالغ فيه، معتمداً على الاستعارات المأخوذة من الطبيعة والعمليات الطبيعية فى شكل ملائم من المدح.

والآن، يصبح من الواضح أن نظام الأدب – أى المعرفة التى ينبغى للمرء أن يحملها، والتى تجاوز المعرفة باللغة، من أجل أن يقرأ وأن يفسر الأعمال الأدبية – لا يشتمل على شفرات محددة كتلك التى تتعلق بعلامات المرور وباللياقة. إن فى وسع المرء أن يتعرف الطرق المختلفة فى تفسير اللغة المجازية، وأن يتعرف الأعراف التى تحكم الأجناس الأدبية المختلفة، والبناء أو التكوين العضوى للأدب، ولكن الأدب يحط على الدوام من قيمة أى شىء يهدد بأن يصبح شفرة صارمة أو قواعد محددة للتفسير ويسخر منه ويتجنبه. إن علامات المرور لا تنتهك شفرة علامات المرور، ولكن الأعمال الأدبية دائمة الانتهاك للشفرات؛ والسبب فى هذا هو أن الأدب – أساساً – استكشاف لإمكانات التجربة، ومراجعة للتصنيفات التى اعتدنا أن نبصر فيها ومن خلالها أنفسنا والعالم، إن الشفرات الأدبية تؤدى دوراً مهماً من حيث إنها تجعل عملية المزاجعة أو الكشف هذه ممكنة، على النحو نفسه الذى تهيىء به قواعد اللياقة إمكانية أن يخفى المرء بها موقفاً غير لائق. ولكن الأعمال الأدبية لا تكمن مطلقاً بصورة تامة فى الشفرات التى تحددها. وهذا هو ما يجعل البحث السيميوطيقى فى الأدب عملاً مضنياً(١).

وقد كشف **سوسير** فى سلسلة من التأملات فى الأساطير الألمانية فى العصور الوسطى عن اهتمامه بالجوانب السيميوطيقية فى الأدب، وعن وعيه ببعض المشكلات التى تطرحها. وقد كتب يقول إن الأسطورة: «تتألف من سلسلة من الرموز بمعنى ما يظل فى حاجة إلى تحديد». وعلى الرغم من أن تحديد هذه الرموز أصعب من تحديد عناصر لغة ما فإنها محكومة بلاشك بالمبادىء نفسها التى تحكم العلامات الأخرى، و«إنها جميعاً تشكل جانباً من السيميولوجيا»(٢)، وفى حالة الأدب، كما هو الشأن فى حالة اللغة

(١) لمزيد من المعرفة الخاصة بدراسة الأدب بنيويًا وسيميوطيقيًا، انظر كتاب المؤلف:
Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and The study of Literature (Ithaca: Cornell University, Press, 1975).

(٢) Jean Starobinski: Words Upon Words (New Haven: Yale University Press, 1979), P. 5.

حيث يستخرج **ستاروبنسكى** مواد من مفكرات **سوسير** عن الأساطير، وكذلك مناقشاته لظاهرة التقاليب والتباديل.

والنظم السيميوطيقية الأخرى، تصبح المشكلة الجوهرية هى مشكلة التحديد. ذلك بأن المرء لا يتناول علامة ثابتة، بحيث يظل للشكل المعين المعنى نفسه حيثما ظهر، ولكن الأمر على النقيض؛ إذ يظل العمل الأدبى يعتمد على علامات وجودها سابق له، «رابطاً بينها، ومستخرجاً منها على الدوام معانى جديدة». والواقع أن **سوسير** إذ نظر فى مشكلة الشخوص فى أساطيره الألمانية، توصل إلى نتيجة مؤداها أن المرء يواجه بسلسلة كاملة من العناصر (كالأسماء الحقيقية، والصفات، والعلاقات مع الشخوص الأخرى، والأفعال)، وأن ما يتكلم عنه المرء بوصفه شخصية رجل أو امرأة هو من ابتكار القارىء، ونتيجة للجمع والربط بين كل العناصر المتباينة التى يواجهها القراء وهم يتقدمون فى قراءة النص(١).

لقد عثر **سوسير** هنا عن طريق المصادفة على نظام مهم للعرف فى الأدب. ذلك أن صنع الشخصيات تحكمه النماذج الحضارية التى تمكننا – على سبيل المثال – من الاستدلال على الدوافع من الفعل، أو صفات الشخصية من سلوكها ومظهرها. وعلى هذا فإننا إذا قلنا إن الشخصية تتغير فى مسار رواية أو حكاية بعينها فإن هذا الذى نقوله يعنى أنه على أساس من نماذجنا الأدبية الخاصة بالشخصية قد يتعارض أو يتضارب فعلان أو صفتان منسوبتان إلى شخصية مفردة؛ فنحن نذهب – وفقاً لتصوراتنا للشخصية – إلى أنه إذا صنع واحد من الناس الفعل **س** ثم صنع فيما بعد الفعل **ص** فإننا لن نستطيع إدراك المراد من هذا إلا أن نقول إن الشخصية تغيرت.

التقاليب والتباديل(*) ومركزية العقل:

تعد ملاحظات **سوسير** حول سيميولوجيا الأدب أولية، وإن كانت تنطوى على

---

(١) اقتباس لدى D'Arco Silvio Avalle فى مقاله «سيميولوجيا القص عند سوسير» La Sémiologie de La Narrativité chez Saussure, Bouazis C. (ed.).

المنشور فى: Essais de La théorie du texte (Paris: Golilée, 1973), P. 33.

(*) ما أسماه الخليل بن احمد فى مقدمته لكتاب العين التقليبات هو ما أسميته هنا التقاليب والتباديل، ترجمة للمصطلح anagrams، والعدول الطفيف عن مصطلح الخليل إنما قصد به اشتمال المصطلح الجديد على كل اشكال التقليب والتبديل التى لا تمثل تقليبات الخليل سوى شكل منها. الأمر إذن =

بصيرة نافذة. ولكنه كرس وقتاً طويلاً من سنواته الأخيرة لعمل آخر وثيق الصلة بهذا، وترك عدداً ضخماً من الملاحظات وإن لم يغامر قط بنشر أى شيء فى الموضوع. لقد طور النظرية القائلة إن الشعراء اللاتينيين كانوا يخفون عن عمد فى أشعارهم التقاليب والتباديل التى يحدثونها فى الأسماء الحقيقية. وقد اعتقد أنه استكشف نظاماً إضافيًا للعلامة، أو جملة خاصة من الأعراف لإنتاج المعنى، وملأ كثيراً من المفكرات بملاحظات خاصة بالأنماط المختلفة للتكرار وللتقاليب والتباديل التى كان قد استكشفها (كالحروف المبعثرة خلال النص، أحياناً تكون فى نظامها الصحيح، وأحياناً مع تغيير فى الترتيب، وأحياناً تكون فى ثنائيات أو ثلاثيات.. إلخ). وقد كتب يقول إن هذا السطر Taura-sia Cisauna Saminio Cepit، هو سطر من التقاليب والتباديل يشتمل على الاسم الكامل **لاسكبيو** Scipio (فى المقاطع ci + pi + io بالإضافة إلى حرف الـ S فى Samnio Cepit، الذى يعد الحرف الأول من مجموعة تظهر فيها كلمة Scipio كاملة تقريباً..)[1]. ومرة أخرى يستكشف **سوسير** فى الثلاثة عشر سطراً الافتتاحية من كتاب **لوكريتس** المسمى طبائع الاشياء De Rerum Natura، التى تعد ابتهالاً إلى **فينوس** – يستكشف ثلاث صور من التقاليب والتباديل لاسم الإلهة الإغريقية **أفروديت**.

= يجاوز تقليب حروف ك ل م مثلاً لاستخراج ملك، ولكم، وكمل منها، إلى جملة الحالات التي ترد الإشارة إليها فى هذا الكتاب. ومعروف أن الشعراء العرب قد التفتوا إلى هذه الإمكانية اللغوية وتلاعبوا بها مختلف ألوان التلاعب. ومن أقدمهم ابن الرومى الذى عرف بتطيره، أرسل إليه أحد الأمراء خادماً له يدعوه إليه، كان اسمه «إقبال» حتى يتفاءل به ابن الرومى، ولكن ابن الرومى ما كاد يهم بالخروج معه حتى عدل وقال للخادم: اذهب إلى مولاك فأنت ناقص، ومعكوس اسمك «لابقا». وهو نفسه الذى قلّب كلمة الموز ليستخرج منها أكثر من دلالة جديدة، وذلك فى قوله:

إنما الموز حين تمكن منه ... كاسمه مبدلاً من الميم فاء
وكذا فقده العزيز علينا ... كاسمه مبدلاً من الزاى تاء
فهو الفوز مثلما فقده المو ... ت، لقد بان فضله لاخفاء

(المترجم).

(١) Starobinski, P. 16.

وهذا المثال نموذجى تمامًا، فقد كان **سوسير** يبحث عن التقاليب والتباديل التى تقع فى الأسماء الحقيقية المرتبطة بالأشعار، كما أنه كان يهتم بالتقاليب والتباديل التى تتكرر فى النص، وليس بالتقاليب والتباديل التى تحدث عرضًا. لقد تكدست لديه مجموعة هائلة من الأمثلة والفروض المتعلقة بالقواعد التى تحكم تشكيل الصوت، ولكن كان هناك اعتباران أزعجاه وجعلاه يترك تأملاته دون أن تنشر. الاعتبار الأول يتصل بمسألة المقصد التى كانت حاسمة؛ فلو أن ذلك كان حقًا عرفا فى الشعر اللاتينى – أى عرفًا يأخذ به الشعراء أنفسهم – فلماذا إذن لم يكن هناك إشارات إلى هذه الممارسة أو مناقشات لها فى النصوص الكلاسيكية؟ والاعتبار الثانى يتمثل فى أن التحذير الذى ذهب إليه فيما يتصل بالاحتمال الإحصائى للتقاليب والتباديل التى استكشفها لم يكن حاسمًا؛ فقد واجه موقفًا متناقضًا عندما لاحظ فى مرارة أن المرء إذا وجد عددًا ضئيلاً من التقاليب والتباديل كان ذلك مدعاة لاستبعادها، على أساس أنها نتائج المصادفة؛ فإذا وجد المرء عددًا كبيرًا منها كان ذلك مدعاة للظن بأنها جميعًا من السهل الوقوع عليها، وأنها نتاج عادى لتكرار ستة وعشرين حرفًا [1]. وقد كتب فى خطاب له يقول: «لست أذيع سرا حين أصرح بحقيقة أننى فى حيرة أنا نفسى؛ وهذا فيما يتصل بأهم نقطة؛ وأعنى بها كيف ينبغى للمرء أن يحكم على المسألة كلها، ما إذا كانت حقيقة أو وهمًا»[2].

والمسألة المهمة بطبيعة الحال هى كيف يتأتى لنا التفكير فى ذلك؟ هل هو «جنون **سوسير**» كما أطلق عليه؛ أى هاجس جنون متسلط على عقله، أو هو – فيما ذهب إليه آخرون – بحث جذرى فى اللغة وفى العلامة على وجه الخصوص؟ هل كان **سوسير** قد استبدت بتفكيره مشكلة وهمية، أو أنه كان يبحث فى جانب آخر من العملية الوظيفية للغة – أعنى جانبًا يتجاهل الشفرات اللغوية العرفية وعلاقات العلامة؟

(1) Ibid, p. 99.

(2) Ibid, p. 105-6.

وفى وسعنا أن نقول فى حسم إن عمل **سوسير** فى مجال التقاليب والتباديل لم يكن بالنسبة إليه بحثًا فى العلامة أو دليلاً يشير إلى أن القراء أحرار فى إنتاج المعنى وفقًا لرغباتهم. لقد ذهب **سوسير** إلى أن التقاليب والتباديل تحكمها الأعراف الإضافية الصارمة، وأن استكشافها لم يكن شكلاً من أشكال التعبير عن الذات أو الهرب من حالة ضيق. أضف إلى هذا أن التقاليب والتباديل، أو «توزيعات الحروف» – على نحو ما كان **سوسير** يسميها فى بعض الأحيان – لم تكشف عن معنى مخرب وغامض ولكنها زودتنا بألفاظ أخرى (هى فى الواقع أسماء حقيقية) أكدت ما كان النص قد ناقشه من قبل؛ «فتوزيع الحروف hypogram يهتم اهتمامًا كبيراً بتأكيد اسم أو كلمة، جاعلاً من تكرار مقاطعها عملاً أساسيًا، ما نحا إياها بهذه الطريقة وجوداً ثانيًا مخترعًا، يضاف – إذا صح التعبير – إلى الوجود الأصلى للكلمة»(١). أما التقاليب والتباديل فهى أحرى أن تدعم المعنى الذى تحمله علامات أخرى فى النص من ان تقلص هذا المعنى.

ماذا يمكننا أن نقول عن نظرية **سوسير**؟ ربما سلكها المرء فى منظور تحليلى نفسى وقال إنه استكشف حالة خاصة لما يمكن أن يسمى «إلحاح الحرف على اللا شعور». فعندما يقرأ المرء شيئًا كان قد كتبه، يكون من باب التجربة المألوفة أن يستكشف المرء أنه كرر – دون أن يقصد إلى ذلك – كلمة بمعنيين مختلفين، أو استخدم كلمات متجانسة صوتيا فى معان شديدة القرابة. وشرح هذا على سبيل الافتراض هو أن كلمة مفتاحًا ما ظلت تتردد فى الشعور الباطن، وساعدت على تحديد اختيار الكلمات التالية لها. ويوحى الشاهد التحليلى النفسى، وخصوصًا الأمثلة الواردة فى كتاب **فرويد** المسمى **الطب النفسى فى الحياة اليومية** (١٩١٤) بأهمية الروابط اللفظية الصرف؛ أى ذلك النوع من الروابط المتمثلة فى التورية والتقاليب والتباديل فى طرائق اللا شعور. ومن ثم يصبح للمرء الحق كل الحق فى أن يتوقع أن تشتمل اللغة الشعرية، التى لا تحكمها

(1) Ibid, p. 18.

أهداف اتصال لها خصوصيتها، والتى تسمح بمجال أوسع لعمليات التداعى، على قدر بعينه من التكرار القائم على التقاليب والتباديل، حتى وإن لم يسع الشاعر إلى ذلك قاصداً.

وإذا كانت الحالات المقنعة للتقاليب والتباديل تشتمل – كما اعتقد **سوسير** – على تكرار كلمات قائمة من قبل فى النص، فإن فى وسع المرء إذن أن يربط بين التقاليب والتباديل وغيرها من العمليات الشعرية. وفى عبارة **بودلير** التى يقول فيها: "Je sentis ma gorge serrée par la main terrible de l'hystérie" تعيد الأصوات التى وضع خط تحتها، وهى is terri، إنتاج الكلمة الأخيرة على وجه الدقة، أى hystérie. ويمكن أن يقال من باب الافتراض إن الشاعر إنما أراد أن يصنع نسيجًا صوتيًّا غنيًّا بالأصداء، فاتفق له أن صنع صورة من صور التقاليب والتباديل. ولننظر فى هذا المقطع من «السونيت» التى كتبها **جيرارد مانلى هوبكنز**، حيث يقول:

As kingfishers catch fire, dragonflies draw flame;

As tumbled over rim in roundy wells

Stones ring; like each tucked string tells, each hung bell's

Bow swung finds tongue to fling out broad its name.

فيمكننا أن نجد الأصوات المشكلة لكلمة Christ (فى السطر الأول نجد i,r,k وفى السطر الثالث نجد st مرتين)، ولكلمات أخرى كثيرة؛ ولكن هذه التقاليب والتباديل المحتملة تبدو أقل فى أهميتها من الأصداء المترددة فى "King fishers catch fire" وفى "hung.. swung.. tongue" التى توحى بان المخلوقات والأشياء تخلع أسماءها على ما تصنعه. وكذلك يرتبط التكرار القائم على التقاليب والتباديل بالقافية والجناس الاستهلالى(*) والسجع – وهى القوالب التى تشكل المستوى الصوتى من خلال تكرار

(*) حين يرد تكرار الحرف فى بداية كلمتين أو أكثر يسمى هذا بالجناس الاستهلالى. (المترجم).

مكونات العلامات لا العلامات ذاتها. وقد كتب سوسير نفسه، الذى تنبه فى عمله إلى التكرار فى أنواعه المختلفة، يقول:

من السهل افتراض أنه إذا بدأ المرء بإحدى صور التقاليب والتباديل فإن تكرار المقاطع الناشىء عنها قد ينتج فكرة نظام يتولد من صوتم إلى صوتم؛ أى جناس استهلالى يؤدى إلى توازن بين الأصوات، بقدر ما هو من السهل افتراض المقابل، بمعنى أن الشعراء يكونون متنبهين ابتداء إلى توازن الأصوات ثم يجدون ذلك طبيعيًا، مع التسليم بأن الأصوات نفسها لابد من تكرارها لاختيار ما يشير منها فى الوقت نفسه إلى اسم لابد أن يكون كل إنسان قد تنبه إليه(١).

وفى كلا الحالين ترتبط التقاليب والتباديل بممارسة التكرار، حتى مع أن الصورة الكاملة للتقاليب والتباديل قد لا تكون حاسمة آخر الأمر، وإن كان هذا يضفى على التكرار الدقة والإحكام، ويستعيده بوصفه علامة قابلة للتحديد.

وعلى هذا يمكن أن تكون التقاليب والتباديل حالة خاصة من ظاهرة أعم، قد يتطلب الامر تقدير أهميتها فيما يتصل بأداء اللغة لوظيفتها. ووفقًا لشرح سوسير للغة بوصفها نظامًا من العلامات، تشتمل أى لغة على علامات هى نتاج التعارض بين عناصر لا تحمل فى ذاتها معنى ولكنها تؤدى وظيفة تخالفية. وهذه العناصر الأساسية – كما رأينا فى الفصل الثانى – تحددها بصورة نهائية قابليتها لتمييز عناصر المستوى الأعلى، أى العلامات. فالصوتم /b/ يمثل تقاطع التعارضات التى تفرق بين bat و pat و cat و fat و gat و hat و rat و sat و tat و vat، أو بين bet و jet و let و met و pet و net و set و dept و vet. وإذا ما بدأ المرء – عند نظره فى نص ما – بالالتفات لا إلى العلامات ولكن إلى طرز أخرى شكلتها مكونات العلامات كالحروف والصوتمات، فعندئذ يتراءى منظور مختلف، يتمثل فى إمكانية قيام عمليات دالة أخرى يكون عملها دون علامات النص الظاهرة أو جنبًا لجنب معها.

(1) Ibid, p. 95.

وقد كان سوسير نفسه ميالاً إلى ألا يعد تكرار الحروف مهمًّا إلا عندما يمكن النظر إليها على أساس أنها انتشار أو اختباء للعلامات المنتظمة المتعلقة بظاهر العبارة فى النص. ومن ثم نراه وهو يحدد مستوى آخر وآلية أخرى للدلالة، يؤكد أن طاقاته النصية قد اجتازت العلامات العادية، وذلك حين يدل تكرار التقاليب والتباديل على معنى عن طريق ما يشكله من الأسماء الصحيحة. وفكرة النظر فى العناصر التكوينية للعلامات من حيث دورها فى التقاليب والتباديل قد مكنت مع ذلك لاحتمالين:

١- العثور على أشكال التقاليب والتباديل وآثار أخرى للعلامات لا تظهر علنًا فى النص ويمكن أن تحمل رسالة مضادة.

٢- العثور على طرز من التكرار لا يمكن أن تنحل فى يسر فى العلامات المنتظمة، كما هو الحال فى عبارة "Kingfishers catch fire"، أو عبارة "proud as a pea-cock"، أو "I like Ike"، فبمجرد أن يبدأ الإنسان فى التفكير فى الحروف بوصفها مكونات ممكنة لطرز أخرى، يكون بذلك قد أخذ فى تناول اللغة بطريقة جديدة.

ومن هذا المنظور يبدو أن اللغة لم تعد ذلك النظام من العلامات، التى تربط كل علامة منها بين دال ومدلول، بوصفها طرازًا لا نهائيًا من الأصداء وصور التكرار، حيث يواجه القراء مشكلة تحديد أى الطرز يتعقبون من بين الطرز الكثيرة المحتملة، وأى منها يجعلون له دلالة (لقد بحث سوسير عن التقاليب والتباديل فى الأسماء الصحيحة الوثيقة الصلة بالموضوع، ولكنه ربما بحث - بدلاً من ذلك - عن التقاليب والتباديل التى لا صلة لها به، أو عن طرز حرف اللين أو عناقيد الحرف الساكن). إن العلامات ليست مجرد مادة للإدراك؛ فإدراك الدال آخر الأمر هو أن تنزل بعض الطرز دون غيرها منزلة التعبيرات التى تحمل معنى. ثم إن المعنى - من جهة - يبدو من إنتاج القارىء الذي يتعقب بعض الدلالات دون غيرها؛ ولكن التأثيرات اللغوية على اختلاف أنواعها - من جهة أخرى - يمكن أن تكون من نتاج وسائل يبدو أنها لا تتضمن أعرافًا لغوية على الإطلاق، كما هو الشأن فى عملية التشكيل الصوتى لشعارات الإعلان أو للشعر،

التى يمكن أن تؤدى دورها دون قارىء أو مستمع يتحول فى وضوح إلى الوعى بها. وفى كلا الحالين يبدو نموذج اللغة بوصفها نظاماً من العلامات عرضة للهجوم. وتبدو فكرة أن الأعراف اللغوية السابقة تمكن المستمعين أو القراء من تحديد الدوال ومعرفة معانيها – تبدو كما لو أن العمليات التى تعرضها التقاليب والتباديل قد قوضتها من جانبيها؛ فهناك عملية تشكيل تؤدى دورها دون أعراف سابقة أو إدراك لها من جانب المستمعين؛ وهناك عملية تشكيل يبدو أن القراء قد أنجزوها بكامل إرادتهم، أولئك الذين يتحتم عليهم أن يحددوا ما يعد دالا.

هذا التصور للغة، الذى يلمحه المرء وهو يجاهد مع **سوسير** من أجل أن يدرك الأسماء المفاتيح والطرز الأخرى التى يبدو أنها متناثرة فى النص بطريقة التقاليب – كان له أهمية خاصة بوصفه نقداً لوجهات النظر الخاصة باللغة، والمتضمنة فيما سمى «مركزية العقل» logocentrism فى التراث الغربى. ونحن نرى بصفة عامة أن اللغة نظام وسيط يتم من خلاله التعبير عن الفكر أو تجسيده. وقد يكون الوضع المثالى هو تأمل الفكر مباشرة، دون تدخل من العلامات؛ ولكن يتحتم علينا اللجوء إلى العلامات، التى تقوم فيها الدوال المادية مقام المدلولات الروحية أو تمثلها. فالدوال تجليات خارجية ينبغى أن تكون شفافة قدر المستطاع، وأن تؤدى إلى المفاهيم ذاتها، أو إلى «ما فى ذهن» المتكلم، عندما ينطق بتلك العبارة الإنجليزية الكاشفة.

ومن هذا الوصف الذى يظل مختصراً يستطيع المرء أن يستخرج عناصر كثيرة تتعلق بمركزية العقل، أى الإطار المفهومى المألوف للفكر الغربى؛ فالتصورات العادية للغة تستند إلى التعارضات التراتبية (الهيراركية) بين الحقيقة والمظهر؛ بين الجوهر والعرض؛ بين الداخل والخارج؛ بين المعنى والشكل، حيث تكون للكلمة الأولى منهما الأولوية، وتفهم الثانية بالنسبة إليها، بوصفها فرعية ومتوقفة عليها. ويقف النموذج العام هنا فى مقابل الحقيقة الواقعة أو الأساس الذى تقوم عليه المظاهر، والأعراض، والأمور الطارئة، والصور التمثيلية – ذلك الأساس الذى يتمثل فى نسق الحقيقة؛ فى المنطق؛ فى العقل؛

واختصاراً فى **اللوجوس** logos (الكلمة)، (ومن ثم كانت مركزية العقل). وعلى هذا تفهم الدوال على أساس أنها تقوم مقام المفاهيم أو تؤدى إليها؛ تلك المفاهيم التى تستقل مبدئيًا عن وسائلها فى الإبانة أو التعبير. ومن ثم ينبغى ألا يختلط الفكر مع وسائله فى التعبير أو يتأثر بها. والكارثة فى الجناس – على سبيل المثال – هى أنه يتناول علاقة يفترض أنها عرضية وطارئة بين الدوال (مثل ما بين history و his story أو بين write و right) كما لو كانت علاقة فكرية. فإذا ما استمرت هذه الصور من الاختلاط فربما شوشت على التعارض التراتبى وهددت الاستقلال الذاتى للمعنى/ الحقيقة/ الجوهر/ الداخل وأولويتها، بجعلها خاضعة لتأثير الشكل/ المظهر/ العرض/ الخارج.

وقد تمثل جانب من مركزية العقل، يتعلق على نحو خاص باللغة، فى فكرة أن الأصوات تمثل المعانى القائمة فى وعى المتكلم – أى ما فى ذهن المتكلم. ولقد كانت علاقة **سوسير** بمركزية العقل معقدة، على نحو ما سيبرز فيما بعد فى الفقرة التالية عند مناقشتنا لقراءة **جاك ديريدا للدروس**، ولكننا نستطيع أن نقول فى هذه المسألة إن مقاومة **سوسير** لمركزية العقل لم تنشأ عن اهتمامه بالتقاليب والتباديل أو لم تتطلب هذا الاهتمام. فالدال ليس تعبيراً عن مفهوم له استقلاله الذاتى أو عن بديهة؛ لأن اللغة– أولاً – ليست سجلاً بالأسماء، ولأن ما يمكن أن يكون له حضور ماثل للوعى – ثانيًا – هو شبكة من الاختلافات أو الفروق. وإذا كان أكثر خواص كل علامة تحديداً – وفقًا لما كتبه **سوسير** – هو أن تكون مغايرة للعلامات الأخرى، وإذا كان المدلول يتكون من آثار مما يتعارض معه، فلن يكون فى وسع المرء عندئذ أن يتكلم عن مثول مدلول واحد فى الذهن له استقلاله الذاتى. فعندما أتلفظ بكلمة **أخضر**، فإن هذا «المفهوم» على نحو ما يتمثل، ربما كان أفضل تعبير عنه هو أنه يجمع بين ما «ليس أزرق»، وما «ليس أحمر»، وما «ليس أصفر» إلخ. – أى حزمة من المنفيات. فكلمة **أخضر** معناها حيز فى شبكة من الاختلافات المشتركة بين الأشخاص. **وإعطاء** الكلمة معناها لا يعنى استعادة شىء كان حاضراً عند تلفظى بالكلمة، ولكنه يعنى ملء الحيز بعلامات أخرى، لكى أشخص بعض الخصائص الفارقة التى تحدد معنى الكلمة.

إن إصرار **سوسير** على القول بالطبيعة التخالفية للعناصر اللغوية موجه ضد مركزية العقل؛ ولكن يبدو أن صورة اللغة التى قدمت بطريقة واعدة عن طريق تعقب التقاليب والتباديل تذهب إلى أبعد من هذا؛ إذ تتشكك فى فكرة أن اللغة نظام من العلامات عن طريق الإشارة: (١) إلى أن هناك قوى تعمل تحت مستوى العلامة؛ (٢) أن العلامات لاتقدم بطريقة خارقة للعادة، حتى إن اتخاذ القرار بتناول أشكال بعينها وليس غيرها بوصفها أشكالاً دالة هو فرض للمعنى، وليس تعرفًا للعلامات التى استقرت فى العرف. ومفهوم العلامة القائم على أساس التمييز بين الشكل والمعنى، أو المحسوس والمدرك، ينتمى بكل تأكيد إلى مركزية العقل فى الفكر الغربى، حتى إن عمل **سوسير** فى مجال التقاليب والتباديل إذا كان يقدم لمحة عابرة إلى القوى التى توقع الفوضى فى نظام العلامة، فإنه يحدد ما تعمل مركزية العقل على كبته أو تنحيته جانبًا بوصفه غير مناسب لطبيعة اللغة.

وهناك درسان يمكن استخراجهما من المثل الخاص بالتقاليب والتباديل، ولكنهما درسان يمكن أن يصدرا على نحو أيسر عن نص مثل «رقبة فنجان Finnegan's" Wake، لم يكن بطبيعة الحال فى متناول **سوسير**. وتبدو **رقبة فنجان** كأنها منسوجة من كلمات تشبه علامات من لغات مختلفة ولكنها لا تتوافق معها فى بعض الأحيان(١):

> **And stand up tall! Straight. I want to see you looking fine for me. With your brandnew big green belt and all. Blooming in the very lotust and second to nill, Budd! when you're in the buckly shuit Rosensharonals near did for you. Fiftyseven and three, cosh, with the bulge. Proudpurse Alby with his poora-roon Eireen, they'll. Pride, comfytousness, enevy.**

(1) James Joyce, Finnegans Wake (London: Faber, 1939), p. 629.

وأنا مدين لديريك اتريدج Derek Attridge فى مناقشته فى مقاله Unpacking The Portmanteau انظر: Culler J. (ed): On Puns (Oxford: Blackwell, 1988).

وقف فارعا منتصبا ! أود أن أراك جميلاً فى عينى. فى زُنّارك العريض الأخضر الجديد وفى كل ما سواه. ناضراً ومزهراً فى قلب النيلوفر نفسه، ولا نظير لك. أيها البرعم! عندما كنت فى حلة عيد الميلاد اقترب منك روزنشارونالز. سبعة وخمسون وثلاثة، وقضيب للقمع، مع النتوء، وألبى صاحب كيس النقود الفخم، وإيرين المسكينة، وكل شىء. إنها الكبرياء، والدعة، والحسد(١).

إن معرفة السياق تمدنا بموضوعات مختلفة (على سبيل المثال موضوع الزوجة والأم التى تطلب من الزوج أن يستعرض ملابسه الجديدة أو قدرته الجنسية)، ولكن التفسير هو آخر الأمر استكشاف للعلاقات القائمة بين الصيغ التى قدمها النص والعلامات التى تنتمى إلى لغات مختلفة؛ فكلمة shuit توحى بطبيعة الحال بكلمة shit (حقير)، ولكنها ربما كانت أنسب لكلمة shirt (قميص)، أو suit (حُلة)، أو shoes (حذاء) (وهذا بسبب كلمة buckle فى كلمة buckly (مرصع)، وإن كانت الصيغة buckly suit توحى «بحُلة عيد الميلاد»). أما كلمة Rosensharonals فهى أشبه أن تكون اسمًا حقيقيا (الحائك؟)، ولكنها تستدعى عبارة "Rose of Sharon" (وردة شارون)، التى تتوافق مع bloom (زهرة)، و lotus (اللوتس)، و budd (برعم). وكلمة budd ذاتها تستخدم فى المخاطبة ("Hey, bud")، أو الكلمة الخاصة بعضو التذكير فى اللغة الغالية (وهو ما يتوافق مع "stand up tall" (قف فارعًا)، كما أن قوله "nill, Budd" تشتمل على تقليب لكلمة "Dublin" - أى ينطق هذه الكلمة معكوسة - التى تبرز للعيان فى الرقبة Wake، والتى تم استدعاؤها هنا مع «زنارها الأخضر وكل شىء green belt and all، وذلك قبل المشهد السياسى الخاص «بالبى صاحب كيس النقود الفخم» proudpurse Alby (بريطانيا الغادرة؟ Perfidious Albion?)، مع صاحبته «العزيزة البائسة أيرين pooraroon Eireen (أى «آير البائسة» poor Eire، ولكنها توحى أيضًا «بإيلين آرون» Eileen Aroon، التى تعنى «إيلين، عزيزتى»).

هنا، وكما هو الحال فى التقاليب والتباديل، يشعر القراء أنهم - من جهة - مرغمون

على اختيار ما يقتفون أثره، أى ما يتناولونه بوصفه دالاً، وإن كانوا – من جهة أخرى – خاضعين لعملية تكرار، تردد فيها بعض العلامات أصداء علامات أخرى، فى لغات ربما كانوا لا يعرفونها. هكذا يشعر القراء على السواء بأن هناك معنى ملحًا فى النص (فى علاقات الكلمات بكلمات أخرى)، وأن المرء ينبغى له أن يبدع إنتاج المعنى عن طريق تعقب بعض الصلات، رابطًا بين صيغ فى النص وعلامات بعينها.

إذن فالدرسان هما: أولاً، أن كلمات العمل متجذرة فى كلمات أخرى سابقة، وانها تحمل آثارًا منها بطرق مختلفة، ربما كانت بطريق التقاليب والتباديل، ولكنها تكون كذلك عن طريق أنواع مختلفة من الترديد. ومع أن هذا يتضح عن طريق الكلمات التى تكون كل كلمة منها منحوتة من كلمتين (مثل "Comfytousness" و"Familliionarily")، والتى تحيل فى وضوح إلى غيرها من الكلمات، أو عن طريق متواليات مستغلقة تتطلب تفسيرها بوصفها تحولات لكلمات أخرى (مثل "shuit" و"buckly") مع هذا فإنه يصح فى كل المتواليات اللغوية، التى تتألف من مقاطع أخذت من متواليات أخرى، والتى تشير تلميحًا إلى تلك المتواليات من خلال ما فيها من تشابهات واختلافات. إن اللغة شبكة من الآثار traces ينساب فيها الدوال الواحد فى الآخر. ومن ثم لا يستطيع المرء أن يقرر فى اطمئنان ما هو داخل النص وما هو خارجه – وهو درس قابل للتعميم، يستفاد من حالة التقاليب والتباديل. وينبغى للمرء أن يتابع قوى الجذب التى تربط بين الدوال بأكثر الوسائل قدرة على الإنتاج.

ولكن هذه الأمثلة تُبرز – من جهة ثانية – أن عملية تفسير أى ملامح فى النص على وجه الإطلاق هى استعادة لهذه الملامح بوصفها علامات. وإن إدراك شىء ما على أنه دال، أى جعله يدل على شىء، معناه إنشاء علاقة متبادلة بينه وبين مدلول، وإن كان هذا المدلول خاويًا. وينبغى للحديث السعيد عن لعب الدوال أن يأخذ فى الحسبان حقيقة أنه لا يمكن أن يكون هناك دوال بغير مدلولات. وقد أدرك سوسير متواليات التقاليب والتباديل، وتناولها بوصفها دوال عندما شكلت حروف كلمات كان يعرف

معانيها. ونحن فى محاولتنا قراءة **رقبة فنجان** نتناول الصيغ على أساس أنها دالة عن طريق الربط بينها وبين علامات معروفة تعيننا على افتراض مدلولات بديلة (بأن نقول إن **shuit** هى "**suit**" أو مدلولات مركبة (كأن يقال إن **shuit** هى "shirt"، و suit و shoes جميعًا»)، أو مدلولات مجاوزة للغة (حين تدل shuit على «زيف التفرقات العادية»). ويظل أكثر صور لعب الدال تجذرًا فى حاجة إلى افتراض المدلولات والعمل من خلالها.

وقد يبدو حقًا أن ما نواجهه مرارًا وتكرارًا فى هذه الأمثلة هو ظاهرة التغير فى النظم السيميوطيقية، أى الطريقة التى يمكن بها إنتاج المعانى الجديدة، وتعديل الشفرات أو الأعراف أو توسيع نطاقها. ونحن نواجه من وقت إلى آخر مواقف تكون فيها اللغة أو صورة مشكلة من مادة رمزية أخرى واعدة بالمعنى ولكنها تقاومه. فهى تعد بالمعنى من حيث إننا نرغب فى أن نفرد لها وضعًا دالا نتيجة لشبهها بدوال مسلم بها، أو نتيجة للشكل الذى يبدو أنها تنتمى إليه؛ ولكنها تقاوم بمعنى أننا لا نملك أن نقرر أى الأعراف له تعلق بها (أى لا نملك أن نقرر أى علامة هى من بين العلامات المختلفة الممكنة)، أو على أى نحو ينبغى لنا أن نعدل من أحد الأعراف حتى يتقارب معها. وأهم الأشياء السيميوطيقية هى تلك التى توثق فى إصرار علاقتها بنظم العلامة ولكنها من الصعب تعيين موضع لها، كما أنها تتابى على التفسير السهل. إنها لا تلائم حقًا تصنيفات النظام، بل يبدو أنها تتحاشاها، وأنها تنتهك ما يعتقد المرء أنه القواعد الخاصة بها. ولكن لما كنا محكومين بالالتزام السيميولوجى القائل: **حاول أن تجعل للأشياء معنى**، فإننا ندخل فى صراع مع الشىء المستعصى أو المراوغ، مرهفين تصوراتنا للمعنى وموسعين لها، أو معدلين من قواعد نظامنا ومستنبطين منها، أو واضعين شفرتين جنبا إلى جنب لإبراز التفاعل التفسيرى. ونحن نواجه هنا مسألة أثيرت من قبل حول الأدب؛ فلو أن شفرة ما سيميوطيقية ظاهرة الدلالة قدمت تفسيرات للأعمال الأدبية، لكان الأدب ضئيل الأهمية، ولحاول المؤلفون – إذا صح أنهم كتبوا شيئًا على الإطلاق – أن ينتهكوا هذه الشفرة.

إن السيميوطيقا تتناول المعنى بوصفه نتاجًا لنظام من الأعراف. وهذا النموذج يلائم الكثير من شئون حياتنا، حيث تعنى العلامة الحمراء الثمانية الاضلاع «قف!» ويعنى زى رسمى بعينه الشرطة، وتعنى عبارة Apportez-moi le livre rouge «احضر لى الكتاب الأحمر!». ولكن أكثر المواقف تحريكًا للذهن، التى غالبًا ما تكون مخيبة للظن، هى تلك التى نجد فيها عناء الملاءمة بين الشفرات والظواهر، والتى يبدو فيها المعنى بما هو نتاج للأعراف وقد حل محله توتر بين تصورين آخرين للمعنى هما: المعنى بوصفه خاصية فى النصوص أو الأشياء، والمعنى بوصفه المدلول الذى إستطيع أن أعزوه إلى الأشياء. وليس من الممكن الدفاع كثيراً عن اى من هذين المفهومين؛ ولكن الموقف الذى نناضل فيه من أجل أن نستكشف معنى يسكن فى الشيء، ونشعر فيه فى الوقت نفسه أنه ينبغى لنا أن نخترع معنى أو أن ننتجه – هذا الموقف يبدو نموذجيًا من منظور السيميوطيقا. إننا ننجذب إلى هذه الحالات أو المواقف، التى يبدو أنها تضعنا على حدود الشفرات والأعراف، حيث تُفحص الشفرات، وربما حوِّلت، وحيث يتحتم إنتاج المعنى. ويرجع الاهتمام الذى استثاره عمل **سوسير** فى مجال التقاليب والتباديل فى جزء منه إلى صياغته الدرامية العملية للتوتر بين العثور على معنى وافتراضه؛ وهو توتر يقع قبل أعراف النظم السيميوطيقية ووراءها.

قراءة ثانية لسوسير:

يفرق **ميشيل فوكو** تفرقة مفيدة بين مؤسسى الحقول المعرفية ومن يسميهم مؤسسى الممارسات الخطابية. ذلك بأن مؤسس الممارسة الخطابية – وهى نشاط يجمع بين الخطاب والتعليق – هو شخص مثل **ماركس** أو **فرويد**، ينشيء ميدانا من الخطاب تأخذ فيه مراحل التقدم شكل التفسير الجديد للنص الأصلى. فالماركسية تتقدم عن طريق التفسيرات الجديدة **لماركس**، شأنها شأن التحليل النفسى، الذى تقدم عن طريق إعادة قراءة فرويد. أما مؤسسو الحقول المعرفية فقد تكون لهم اهمية ثورية تاريخية، ولكن مراحل التقدم فى حقولهم المعرفية لا تأخذ شكل التفسيرات الجديدة للنصوص التأسيسية؛ فعلماء

الطبيعة لا يصنعون علم الطبيعة بالكتابة عن نيوتن. ونحن نعد سوسير حتى الآن مؤسس حقل الألسنية الجديد؛ وهو الحقل الذى يتقدم بصفة عامة – فيما يمكن التنبوء به – بكل ما ارتبط به من مجادلات دون الإشارة إلى سوسير. وقد درسنا سوسير كذلك بوصفه مؤسسًا لحقل السيميوطيقا المحتمل. ولكن سوسير قام بالدور الآخر كذلك؛ فكتابه دروس فى علم اللغة العام يمثل نصًا من النصوص الأساسية فى المجال الخطابى اليوم، الذى يعرف بكنيته ألا وهى «النظرية» theory، كما أن المناقشات المتعلقة بالدلالة فى الحقول المختلفة قد أخذت شكل المراجعات أو التفسيرات الجديدة لسوسير. وهناك ثلاث مناطق تمت فيها قراءات جديدة مهمة لسوسير هى: الماركسية، والتحليل النفسى، والتفكيكية.

الماركسية:

كان لابد للمحاولات التى بذلت فى النظرية الماركسية لتصحيح مسألة الحتمية الاقتصادية الفجة، التى تحيل النشاط الثقافى إلى بنية عليا فرعية – أن تصل إلى طرق التعامل مع اللغة ومع النشاط الرمزى بعامة. ويمكن فهم هذا العمل على أنه محاولة لتصحيح «الفروض المثالية» فى نظرية العلامة عند سوسير. وقد لاحظ روزالند كاوارد Rosalind Coward وجون إليس John Ellis أن دراسة سوسير للغة بوصفها نظامًا للعلامة، وامتداد هذا المنظور إلى مجال الممارسات الاجتماعية التى فهمت على أنها لغات، يمكن أن يعيننا – إذا ما تمت قراءتهما من زاوية مادية – على التخلص من «موطن الضعف الأساسى فى الفكر والممارسة الماركسيين». «ولأن كل الممارسات التى تشكل المجتمع فى كليته تتحقق فى اللغة، يصبح من الممكن النظر إلى اللغة بوصفها المكان الذى تتشكل فيه بنية أفراد المجتمع»، والقيام «للمرة الأولى بتحليل علمى لمفهوم «الإنسانى» الذى نرى أنه فرض أساسى تفرضه الإيديولوجيا البورجوازية»[1].

وقد فهم كاوارد وإليس الإضافة الكاشفة التى قدمها سوسير على أنها الفصل بين

(1) Language and Materialism (London: Routledge), p.2.

الدال والمدلول من أجل دراسة العلاقات القائمة بين الدوال فى عملية إنتاج المعنى. وما ذهب إليه **سوسير** من ان المعنى هو نتاج الاختلافات « كان ينطوى على إمكانية أساسية، مـا دام من الممكن النظر إلى الدال على أن له وظيـفـة مـؤثرة فى خلق المدلول وتحديده »(١). والنظرة العـامـة التى ترى أن المعنى، ومـعـه الملامح الحـاسـمـة للنظام الاجتماعى، أحرى أن تكون ثمرة إنتاج من أن تكون معطاة، وأن هناك عمليات إنتاج تتطلب الدراسة – هذه النظرة كان لها أهميتها لدى عدد من المنظرين الماركسيين الذين يرغبون فى أن يمنحوا حقل السيميوطيقا استقلالاً ذاتيًا نسبيًا، ذلك الحقل الذي يتم فيه إنتاج الأشياء والإيديولوجيا.

كذلك أعيد تفسير وصف **سوسير** للعلامة بطريقة أكثر خصوصية فى المناقشات الماركسية للقيمة، لا سيما مناقشات جان بودريار Jean Baudrillard، الذى ماهَى – وربما كان متأثراً باستخدام **سوسير** الخاص للاستعارات الاقتصادية فى **الدروس**– بين بنية العلامة وبنية السلعة. وكان **ماركس** قد ميز بين القيمة الاستخدامية Use-value للسلعة (أى فائدتها الحقيقية لدى فرد ما) والقيمة الاستبدالية exchange - value لهـا (أى قيمتها فى نظام التبادل الاقتصادى)، وعد هذه القيمة الأخيرة مظهراً ليست له علاقة منتظمة بالقيمة الاستخدامية للسلعة. وهذه البنية، التى ترتبط بـ « تقديس السلعة » commodity-fetishism، هى بنية العلامة؛ فالقيمة الاستبدالية دال، والقيمة الاستخدامية مدلول. ويذهب **بودريار** إلى أنه ليست هناك علاقة طبيعية تربط، أو ينبغى أن تربط، بين الاثنين أكثر مما تربط بين الدال والمدلول. وفى موقف مضاد للماركسية، التى ترى أن القيمة الاستخدامية معطاة، وانها المعنى الحقيقى للسلعة، التى يختلف عنهـا دالهـا للأسف فى النظم الرأسـمـالـيـة – يذهب **بودريار** إلى أن هذه القـيـمـة الاستخدامية ينبغى أن تفهم بوصفها مدلولاً يبدو أنه لا يكون له وجود منفصل عن داله (أى القيمة الاستبدالية). وهذا المدلول ينتجه فى الحقيقة النظام الدال لكى يقدم – أى

(1) Ibid., p. 3.

هذا المدلول – أساسًا للدال أو دفاعًا عنه، بوصفه – أى هذا المدلول أيضًا – هو القيمة التى يفترض أن الدال يمثلها. وإذ يؤكد **بودريار** أن السلعة هى العلامة، وان العلامة هى السلعة، نراه يستخدم النموذج السوسيرى لكى يفند الشروح الماركسية التى تعزو النشاط السيميوطيقى إلى حقل من حقول البنية العليا (أى الإيديولوجيا) يعكس حقلا اقتصاديًا محددًا تحديداً ضيقًا، ولكى يؤكد أن «الإيديولوجيا هى فى الواقع ذلك الشكل نفسه الذى يقاوم إنتاج العلامات والإنتاج المادى على السواء»(١).

والشىء الذى يبدو فى نظرية **سوسير** حاسمًا بالنسبة إلى الماركسية المعاصرة هو افتراض أن الدوال لا تمثل المدلولات مجرد تمثيل، ولكنها تشكلها، ومن ثم فإنها تنتجها بمعنى ما. وهذا التحريف فى النسق السويسرى يجعل من الممكن تصور شرح مادى للعملية الإنتاجية يجمع بين السيميوطيقى والاقتصادى فى إطار مفهومى واحد.

التحليل النفسى:

يقدم **جاك لاكان** Jaques Lacan، وهو أقوى منظر للتحليل النفسى المعاصر – يقدم عمله بوصفه عودة إلى **فرويد** فى ضوء **سوسير**، وإن كان هذا يتضمن كذلك تفسيراً جديداً لسوسير وتعديلا لآرائه، وذلك لكى تنطبق ملاحظاته عن اللغة على إنتاج الموضوع فى النظام الرمزى. فإذا لم تكن اللغة – كما ذهب إلى ذلك **سوسير** – مجموعة ألفاظ تعبر عن معنى له وجود سابق، بل كانت بنية مركبة من الدوال والمدلولات التخالفية التى يتعارض بعضها مع بعض ويترابط لإنتاج آفاق المعنى، فمن الممكن عندئذ تحديدها (أى اللغة) بنظم العلاقات والأوضاع الرمزية التى تنتج الموضوعات. وقد كتب **لاكان** يقول: «خلال الكلمة – وهى حضور فى الآن نشأ عن غياب – ... يولد عالم المعنى فى لغة بعينها، ينتهى فيها عالم الأشياء إلى النظام. وخلال ذلك الشىء الذى لا ينتهى إلى التجسيد إلا لكونه أثراً لحالة عدم، والذى لا يمكن بعد ذلك إضعاف دعامته، نجد أن المفهوم.. يولّد الشىء.. إن عالم الكلمات هو الذى يخلق عالم الأشياء.. ومن

(1) Pour une eritique de l'économie politique du signe (paris, Gallimard, 1972), p. 173.

ثم يتكلم الإنسان، ولكن ذلك يحدث لأن الرمز قد جعل منه إنسانًا»(١).

والأمر في اللغة لا يقتصر على انها تعم النظام الرمزى الذى ينتج عالمًا اجتماعيا كما ينتج الأشياء الواقعة فيه، فهناك أيضًا اشهر قول ماثور للاكان، وهو «ان اللا شعور مشكَّل بنيويا على غرار اللغة». ذلك بان عمليات التكثيف والإزاحة، التي يراها فرويد مميزة للعمليات اللا شعورية، تتحد مع عمليات الاستبدال والترابط التي هيأها المحوران الخاصان باللغة(*). وبصفة اعم يذهب لاكان إلى انه «إذا كان ما استكشفه فرويد وما يعيد استكشافه، مصحوبًا بشعور بالمفاجاة يزداد على الدوام - إذا كان له أى معنى فهو أن إزاحة الدال تحدد الذوات في تصرفاتها؛ في مصيرها؛ في حالات رفضها؛ وفي حالات تهورها؛ في نهايتها وفي قدرها؛ في موهبتها المتاصلة فيها، ومع ذلك في مكتسباتها الاجتماعية، دون النظر إلى الطابع المميز أو الجنس، وأن كل ما قد يعد مادة علم النفس، بقضه وقضيضه، سيقتفي - شاء أو لم يشأ - أثر الدال»(٢).

والتفرقة التي يقيمها سوسير - على نحو ما توحى هذه الفقرة - بين الدال والمدلول هي تفرقة حاسمة لدى لاكان، الذى راى في نموذج العلامة السوسيرى شكلاً لا مندوحة عنه من الحساب الرمزى algorithm : د / د s/s، التي يمكن أن تقرأ على أنها الدال فوق المدلول، حيث تشير كلمة «فوق»، إلى الخط الذى يفصل بين المرحلتين (٣). والتمييز بين المدلول والدال هو ما جعل من الممكن إنشاء دراسة مدققة للروابط الملائمة للدال، ولمدى تاثيرها في أصل المدلول - أى الطريقة التي تشتق بها الدوال معناها من خلال لعب التعارضات والتآلفات. ولكن في الوقت الذى راى فيه سوسير الدال والمدلول

---

(1) Ecrits: A Sellection (London: Tavistock, 1977), p. 56.

وللوقوف على مناقشة هذا، انظر : Kaja Silverman, The Subject of Semiotics (New York : Oxford University press, 1983).

(*) المقصود هو المحور الاستبدالي والمحور السياقى (المترجم).

(2) Lacan, "Seminar on the "purloined Letter". Yale French Studies 48 (1972), 60.

(3) Ecrits, p. 149.

مترابطين بصورة اعتباطية ولكن على نحو لا فكاك منه، كما هو الشأن فى وجهى الصحيفة من الورق، يرى **لاكان** ان الخط الأساسى القائم فى الرسم البيانى يشير إلى الفصل الحاسم؛ فلعب الدوال يَعِدُ بالمعنى دون أن يؤديه بالضرورة؛ إذ يحدث هناك ما يسميه **لاكان** انزلاق المدلول تحت الدال. وكراهيته لأى شيء يمكن أن يقال إنه المعنى الخاص بعلامة ما إنما تبرز على وجه الخصوص فى الفقرات التى يربط فيها – وهو يصف «الفارق الجوهرى بين الدال والمدلول» وشبكتى العلاقات اللتين ينظمانها – بين الدال والنظام اللغوى، وبين المدلول والملفوظات:

> **إن البنية الأولى، تلك الخاصة بالدال ، هى البنية التزامنية لمادة اللغة بقدر ما يفترض كل عنصر فى هذه البنية لنفسه وظيفته المحددة تحديداً دقيقًا عن طريق كونه مختلفًا عن غيره من العناصر. وهذا هو مبدأ التوزيع الذى يحكم وحده وظيفة عناصر اللغة فى مستوياتها المختلفة.. والشبكة الثانية، تلك الخاصة بالمدلول، هى جملة الخطابات التاريخية (التعاقبية) المنطوق بها بصورة مادية ملموسة، التى تنعكس تاريخيًا على الشبكة الأولى، على نحو ما تتحكم بنية الشبكة الأولى فى مسارات الثانية. والعامل المهيمن هنا هو وحدة الدلالة، التى تدل على أنها لا تنحل مطلقًا إلى مجرد إشارة إلى الحقيقى ولكنها تحيل دائمًا إلى دلالة أخرى(١).**

وهنا يحيل **لاكان** المدلول على نحو ملتبس إلى التكشف الوقتى للخطاب، الذى يسميه شبكة المدلول. وربما تأكدت صعوبة تحليل البنية التزامنية للغة بوصفها نظامًا دون الإحالة إلى المدلولات؛ لأن اختلاف المعنى هو الذى يمكن المرء من تحديد الدوال المختلفة. ولكن تفسير **لاكان** الجديد **لسوسير** كان أمينا فيما يتصل بالآليات التى يواجهها المرء عند دراسته للتقاليب والتباديل ، حيث يواجه المرء دائمًا تكرارًا لما يعرض على أنه دوال، دون أى تعيين واثق لهوية المدلولات. وتفسير **لاكان** الجديد **لسوسير**

(1) Ibid., p. 126.

بوصفه منظّراً للدال يمكّن **لاكان** من الكشف عن أعمق الاستبصارات فى كتابات **فرويد**، التى تصبح فحوصاً نموذجية وأمثلة للقوى الدالة فى حال عملها فى العقول والنصوص.

التفكيكية:

التفكيكية هى مصطلح **ديريدا** للنقد الذى يبين كيف أن التعارضات التراتبية (الهيراركية) فى الفكر الغربى قد حلت او قوضت، أو «تم تفكيكها»، وأنها مطروحة بوصفها تكوينات معنوية أو خدعًا إيديولوجية، وذلك من خلال الكتابات التى تؤكد هذه التعارضات وتستند إليها. وتقوم تحليلات **ديريدا** بدراسة مركزية العقل فى الفكر الغربى، التى يمكن تشخيصها – على نحو ما رأينا من قبل – بأنها افتراض لنظام للمعنى (الفكر، الحقيقة، العقل، المنطق، الكلمة، **اللوجوس**) يفهم على أنه الأساس؛ أى انه سابق على العلامات، وعلى المظاهر الخارجية، إلخ، التى يمكن ان يتجلى فيها، ومستقل عنها. وكانت مركزية الصوت phonocentrism فى نظريات اللغة مثالاً بارزاً لمركزية العقل، وذلك واضح فى معالجة الكتابة بوصفها تمثيلاً لتمثيل، أو بديلاً اصطناعيًّا من الكلام، ومحاولة لفهم اللغة فى العُموم وفقًا لنموذج الكلام. ويذهب **ديريدا** إلى أن تنحية الكتابة جانبًا بوصفها ثانوية وطفيلية هى طريقة لإهمال بعض ملامح بعينها فى اللغة، أو جوانب من أدائها الوظيفى. وإذا ما عولجت الكتابة – التى يبدو أنها لا مهرب لها من أن تشتمل على التجرد الموضوعى impersonality، وعلى مسافة بُعد، وعلى الحاجة إلى التفسير، وعلى احتمال سوء الفهم – على أنها مجرد أداة من أدوات التقنية، ثانوية وفرعية، وأنها لا تعلق لها بطبيعة اللغة ذاتها، ففى وسع المرء عندئذ أن يرى جوهر اللغة فى النموذج المثالى المتعلق بالكلام؛ وهو ما يتضح على وجه الخصوص فى تجربة استماع المرء لنفسه وهو يتكلم، حيث يبدو الاستماع والفهم غير قابلين للفصل بينهما، وحيث يبدو الدال والمدلول وقد ارتبطا مباشرة فى علامة، وحيث يبدو التعبير وثيق الصلة بالمعنى الذى قام هو للتعبير عنه.

ويفكك المرء التعارض التراتبى بين الكلام والكتابة عن طريق بيان أن الخصائص

المنسوبة إلى الكتابة، فى محاولة الهبوط بقيمتها أو تنحيتها جانبًا، تنطبق كذلك على الكلام. وهنا تؤدى قراءة **سوسير** لدى **ديريدا** دورًا حاسمًا، حين تمدنا بنماذج مؤكدة من الطراز الأول لأوضاع تتصف بمركزية العقل، ولكنها تمنحنا كذلك أمثلة من المبادىء التى تحطمها أو تخربها، عارضة لها على أنها تكوينات معنوية أو خدع (إيديولوجية). ويقوم كتاب **ديريدا** المسمى عن الكتابة Of Grammatology الذى يعصف بالتعارض التراتبى بين الكلام والكتابة عن طريق التفكير فى إمكانية تناول اللغة ضمن حدود علم الكتابة – يقوم بقراءة فقرات فى **الدروس** يتناول فيها سوسير الكتابة بوصفها تشويهًا للكلام. وعلى الرغم من أن **سوسير** يستبعد على وجه الخصوص الصوت من النظام اللغوى، ويصر على الطابع الشكلى للعناصر اللغوية، فإنه مع ذلك يأخذ بأن «موضوع التحليل اللغوى لا يحدد عن طريق اقتران الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة؛ فالكلمة المنطوقة وحدها هى التى تشكل الموضوع». (الدروس ٢٣–٢٤؛ دروس ٤٥). وهو يتهم «أخطار» الكتابة، التى «تخفى» اللغة بل «تغتصب» أحيانًا دور الكلام. «إن طغيان الكتابة» قوى وماكر، حيث يقود – على سبيل المثال – إلى أخطاء فى النطق تعد «مرضية»، هى تخريب وإفساد للصيغ المنطوقة الطبيعية. وعلماء اللغة الذين يعنون بالصيغ الكتابية (التحريرية) «يقعون فى المصيدة». والحماسة الأخلاقية التى اتسمت بها مناقشة **سوسير** تشير إلى أن هناك شيئًا مهمًّا يتعلق بالأمر عندما تهدد الكتابة – التى يفترض أنها تمثيل للكلام – نقاء النظام الذى تخدمه.

ولكن إذا كانت الكتابة تؤثر على الكلام، فإن العلاقة بينهما إذن أعقد مما تبدو عليه للوهلة الأولى. والمشروع التراتبى، الذي يتناول الكتابة بوصفها عملاً ثانويًا ومعتمدًا على غيره، قد لحق به مزيد من التحريف من خلال عودة **سوسير** إلى مثال الكتابة لكى يشرح العناصر اللغوية؛ إذ كيف يتمكن المرء من تصوير فكرة العنصر التخالفى الصرف؟ «فما دام من الممكن ملاحظة وضع مماثل فى الكتابة، التى هى نظام آخر للعلامات، فإننا سنستخدم الكتابة للقيام ببعض المقارنات التى توضح الموضوع برمته». (الدروس ١١٩؛

دروس ١٦٥). وعلى سبيل المثال فإن الحرف t يمكن ان يكتب بطرق مختلفة ما دام يتميز عن الحروف l و f و i و d، إلخ. فليس هناك ملامح أساسية له يلزم المحافظة عليها، إذ إن هويته تعالقية صرف.

ومن هنا فإن الكتابة التى ذهب **سوسير** إلى أنه لا ينبغى لها ان تكون موضوع البحث اللغوى، تنقلب فتصبح أفضل تصوير لطبيعة العناصر اللغوية. وترتب على هذا أن صار الكلام يفهم على أنه شكل من الكتابة، أو مثال للآلية اللغوية الأساسية التى تتجلى فى الكتابة. وهكذا قدم نص **سوسير** الصورة مقلوبة رأسًا على عقب؛ فالتراتبية المعلنة، التى تجعل من الكتابة صورة ثانوية من الكلام، أو طرازًا طفيليا من التصوير مضافًا إلى الكلام – هذه التراتبية تنقلب فيكون تقديم الكلام وشرحه بوصفه شكلاً من الكتابة. ويتيح لنا هذا مفهومًا جديدًا للكتابة، يتمثل فى كتابة ذات طبيعة عامة تنشعب إلى فرعين هما الكتابة الصوتية والكتابة الطباعية.

وتأتى إمكانية دراسة الكلام بوصفه حالة خاصة من الكتابة فى صورتها العامة نتيجة لكشف **سوسير** عن الهوية التخالفية للعناصر اللغوية. وكلما أمعن **سوسير** فى تدقيق بحثه، زاد ميله إلى تأكيد الطبيعة التعالقية الصرف للنظام اللغوى؛ «فالنظام اللغوى لايقوم إلا على الاختلافات، دون أن تكون هناك كلمات ثابتة الدلالة» (الدروس ١٢٠؛ دروس ١٦٦). ومن هنا فإن الصوت فى ذاته لا يمكن أن ينتمى إلى النظام؛ إنه وسيط تتجلى خلاله العناصر، شأنه شأن الحبر الأسود، أو اللوحة الرخامية على النصب التذكارى. والمبدأ القائل إن اللغة نظام من الاختلافات – على نحو ما يشرحه **ديريدا** – من شأنه أن ينتج نقداً شديداً لمركزية العقل، يقوض محاولة تأسيس نظرية فى اللغة على كينونات ثابتة ربما فهمت على أساس أنها محددة بطبيعتها، فإذا لم يكن فى النظام اللغوى سوى اختلافات،

> **فإن لعب الاختلافات يتضمن تكوينات مركبة وإحالات تحول عندئذ دون أن يكون هناك فى أية لحظة أو بأية طريقة عنصر بسيط قائم فى ذاته ولذاته، وأن تكون إحالته إلى نفسه فحسب. وسواء تعلق الأمر بالخطاب المكتوب**

أو الملفوظ فلا يمكن لأى عنصر أن يؤدى وظيفته بوصفه علامة دون أن تكون هناك علاقة تربط بينه وبين عنصر آخر ليس له حضور فى الواقع. وهذه الرابطة تعنى أن كل «عنصر» - صوتى أو كتابى - يتشكل بالرجوع إلى الأثر الماثل فيه من عناصر النسق أو النظام الأخرى. هذه الرابطة أو هذا النسيج هو النص، الذى لا يتم إنتاجه إلا من خلال تحول نص آخر. وليس هناك شيء، سواء فى العناصر أو النظام، هو حيثما كان مجرد حاضر أو غائب؛ فليس هناك فى كل مكان سوى اختلافات وآثار من الآثار(١).

ويؤدى هذا الاتجاه فى المناقشة، وسط أشياء أخرى، إلى نقد لنظرية سوسير فى العلامة، مع ما يتصل بها من تمييز صارم بين الدال والمدلول. فما دام الدال ليس فى ذاته عنصراً ماديًا ولكنه كينونة تخالفية أو تعالقية صرف، عندئذ لا يكون الاختلاف بين الدال والمدلول اختلافًا فى الجوهر - كأن يكون أحدهما ماديًا والآخر روحيًا، أو يكون أحدهما حسيًا والآخر معنويًا. وإنما الخلاف بينهما وظيفى صرف؛ فالدال هو كل ما يعد بالمعنى، ولكن المدلول قد يؤدى دور الدال كذلك، على نحو ما يتكشف لنا عندما نراجع كلمة فى أحد المعاجم لنستخرج معناها فنجد بطبيعة الحال كلمة أخرى يمكننا كذلك مراجعتها(*). وهكذا فإن مفهوم سوسير للعلامة، الذى تم تقديمه بوصفه قائمًا على أساس التمييز بين الحسى والمعنوى - هذا المفهوم ينتمى إلى مركزية العقل، ولكن سوسير يمدنا كذلك بالآلات اللازمة لتفكيكه. ويشرح ديريدا هذا على النحو الآتى:

إن الدفاع عن التمييز الصارم -وهو تمييز جوهرى وشرعى- بين الدال

---

(1) Positions (Chicago: Uinversity of Chicago Press, 1981), p. 26.

وللوقوف على مناقشة للتفكيكية، انظر كتابى:

On Deconstruction (Ithaca: Cornell Universitv press, 1982).

(*) ربما كان المثل الأدل فى هذا السياق هو الصيغة التى اهتدى إليها البلاغى العربى القديم عبد القاهر الجرجانى وشرحها، والتى تتعلق بنظرية المعنى عنده، والتى بمقتضاها يتحول المعنى - بوصفه مدلولاً - ليصبح «دالاً» على معنى آخر، هو ما سماه «معنى المعنى». (المترجم).

signans والمدلول signatum، والمعادلة بين المدلول والمفهوم (المعنى)، يترك المجال مفتوحًا بصفة مبدئية لإمكانية تصور مفهوم للمدلول فى ذاته؛ وهو مفهوم ماثل للفكر، ومستقل عن النظام اللغوى، بمعنى أنه مستقل عن نظام الدوال. وإذ يترك سوسير هذه الإمكانية مفتوحة - وقد تركت مفتوحة وفقًا للمبدأ نفسه، الخاص بالتعارض بين الدال والمدلول ومن ثم بالعلامة - فإنه ينقض المكتسب الحاسم الذى سبق أن تحدثنا عنه. فهو يقر المطلب التقليدى المتمثل فيما اقترحت أن يسمى «المدلول المتعالى» Transcendental signified، الذى قد لا يشير فى ذاته أو فى جوهره إلى أى دال قد يجاوز سلسلة العلامات، ويكف فى لحظة بعينها عن أن يؤدى وظيفته بوصفه دالاً. والأمر - مع ذلك - على النقيض؛ فمنذ اللحظة التى يضع فيها المرء إمكانية هذا المدلول المتعالى موضع التساؤل، ويدرك أن كل مدلول هو كذلك فى وضع الدال - منذئذ يصبح التمييز بين الدال والمدلول إشكاليًا فى أساسه، ومن ثم تصبح العلامة كذلك(١).

وهذا لا يعنى - بطبيعة الحال - أن نظرية العلامة يمكن - أو ينبغى - التخلص منها، ولكن على النقيض، يبدو التمييز بين ما يدل وما هو مدلول عليه - يبدو جوهريًا فى أى فكر كائنًا ما كان، وفى مشروع سوسير اللغوى على وجه التأكيد. والشىء الذى يطرحه هذا النزاع هو قبل كل شىء ضرورة النظر إلى التمييز بين الدال والمدلول على أنه وظيفى ومؤقت أكثر منه تمييزاً حقيقيًا، حتى إن أى مدلول يمكن أن ينظر إليه على أنه دال هو كذلك. وعن طريق بيان ديريدا لحقيقة أن نص سوسير الخاص يمدنا بنقد لمفهوم العلامة الذى يستخدمه سوسير نفسه، راح ديريدا يستخدم هذا المفهوم لإضاءة أعوص المشكلات الخاصة بالمعنى. إن قوة نص مثل نص سوسير ووثاقة صلته بالموضوع، قد تعتمدان على البراعة التى يضع بها هذا النص بها التعارضات التراتبية التى يعتمد عليها بالضرورة فى موضع تساؤل.

(1) Positions, pp. 19-20.

وهناك مسألة أخرى مهمة فى قراءة ديريدا لسوسير – وهى حالة أخرى تعتمد فيها حجة سوسير الصريحة على التعارضات التراتبية، التى تدعو بعض مبادئه المرء إلى وضعها فى موضع تساؤل – هى مسألة الإجراء الذى اتخذه سوسير لتأسيس نظريته عن الطبيعة الاعتباطية للعلامة. وقد كتب سوسير يقول: «إن الكلمات التى يوحى صوتها بمعناها»،

> **ربما أمكن الاعتماد عليها لبيان أن اختيار الدال ليس اعتباطيًا على الدوام. ولكن هذه الكلمات ليست على الإطلاق عناصر أساسية فى نظام لغوى. أضف إلى هذا أنها أقل كثيراً مما هو معتقد على العموم. فكلمة مثل fouet («يلهب (بالسوط)» whip) أو كلمة – مثل glas («يقرع الناقوس» knell) قد تصدم بعض الآذان بما لها من وقع صوتى بعينه له إيحاؤه. ولكن لكى ندرك أن هذا ليس بحال من الأحوال خاصية ذاتية فى الكلمات نفسها، يكفى النظر فى أصولها اللاتينية. فكلمة fouet تأتى من الكلمة اللاتينية fogus («شجرة البلوط» beech tree)؛ وكلمة glas تأتى من الكلمة اللاتينية classicum («نداء آلة البوق الموسيقية» trumpet). والخاصة الإيحائية فى النطق الحديث لهذه الكلمات هى نتيجة عرضية للتطور الصوتى. (الدروس ٦٩؛ دروس ١٠١-٢).**

وكما لاحظ ديريدا فى كتابه المسمى Glas، وهو كتاب خطير، أخذ عنوانه جزئيًا من هذه الفقرة، تبدو العودة إلى البحث فى أصول الكلمات عند مناقشة الطابع «الذاتى» لعلامة بعينها – تبدو غريبة من قبل منظر يفرق فى إلحاح بين الحقائق التزامنية والحقائق التاريخية؛ ومع ذلك فالأغرب من هذا استبعاد «العَرضى» من جانب رجل يقول لنا إن اللغة عرضية أساسًا؛ فلكى يحدد سوسير العلامة اللغوية بوصفها عرضية أساسًا –أى اعتباطية – فإنه يستبعد المبرر العرضى.

هذه النقلات المتناقضة، شأن استبعاد الكتابة، تنبهنا إلى إمكانية أن يكون ما قد طرح جانبًا من أجل استبقاء العلامة اللغوية الصافية أو النظام اللغوى الصرف – أن

يكون فى الواقع جانبًا مهما من اللغة؛ فالمبرر العرضى قد يكون آلية عامة من آليات اللغة. حتى لو أن المرء سلم بما ذهب إليه **سوسير** من أن الألفاظ الموحية من خلال صوتها بالمعنى لا تكون قط صافية، ولا تعتمد قط اعتماداً قويًا على التشابه، فمع ذلك ربما اهتم المرء بإفساد فكرة الاعتباطية عن طريق اللجوء إلى التبرير، سواء كان هذا التبرير قد طرحته حذاقة الشاعر، أو الآثار العرضية للتطور اللغوى، أو عيون القراء الفاحصة، الباحثة عن التقاليب والتباديل، أو أخطاء المتكلمين، أو آليات اللا شعور. وربما حدت الرغبة بالمرء إلى أن يؤكد مع **سوسير** أن بنية اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية لم تتأثر بمعنى ما بالإيحائية المحتملة لكثير من الدوال، ولكن المرء ربما تساءل كذلك مع **ديريدا** عما إذا لم تكن اللغة التى يتكلمها المرء أو يكتبها هى على الدوام عرضة لإفساد العلامات الاعتباطية عن طريق التقدم باقتراحات خاصة بالتبرير القائم على أساس فكرة المحاكاة، وعما إذا لم تكن التأثيرات الناشئة عن التبرير غير قابلة للانفصال عن طرائق اللغة. «ماذا إذن لو كانت هذه المحاكاة تعنى أن النظام الداخلى للغة لا وجود له، أو أن المرء لا يستخدمه قط، أو أنه – على الأقل – لا يستخدمه إلا عن طريق إفساده، وأن هذا الإفساد لا يمكن تحاشيه، وأنه – من ثم – مطرد، و«عادى»، وأنه ينتمى إلى النظام وأدائه الوظيفى جزئيًا en faase partie، بمعنى أنه يعد – على السواء – جزءاً من النظام، كما يجعل من ذلك النظام، الذى هو الكل، جزءاً من كل أكبر من ذاته؟»(١).

والجملة ذاتها، التى ينحى فيها **سوسير** التبرير جانبًا، تبرز مظهراً للتبرير على نحو يوحى بأن الخطاب ربما دفع به ذلك النوع من الظواهر على وجه التحديد، التى يرغب فى استبعادها من نطاق اللغة. وقد كتب يقول «إن كلمة fouet وكلمة glas (قد تقرعان) peuvent frapper بعض الأسماع بما لهما من رنين موح بعينه. وربما كانت كلتا الكلمتين fouet و glas تقرع الأذن لأن السياط والأجراس تقرعها. والكلمة الملائمة لما تصنعه الألفاظ عندما تحدث ضجيجًا، تبدو متولدة عن الأمثلة، أو أن اختيار الأمثلة

(1) Derrida, Glas (Paris: Galilee, 1974), p. 109.

يولده ما يظن أن الكلمات تحدثه فى الأذن. وهذه الجملة التى تعمل على إعادة تبرير العلامات التى يفترض أنها اعتباطية، ومن ثم تربط بين بعضها وبعض، تبرز مبدأ كثيراً ما يعمل الخطاب بمقتضاه، وتوحى بأن العلامات الاعتباطية فى النظام اللغوى قد تكون جزءاً من نظام خطابى أوسع نطاقًا، تتحقق فيه على الدوام مظاهر للتبرير، والعدول عن التبرير، وإعادة التبرير. والعلاقات بين الدوال، أو بين الدوال والمدلولات، يمكن دائمًا أن تحدث آثاراً، سواء تحققت فى الوعى أو فى اللا وعى. ولا يمكن تنحية هذا التوجه على أساس أنه غير متعلق باللغة، كما أن قراءة **سوسير** فى إمعان يمكن أن تضعنا على الجادة الصحيحة لهذا التوجه.

إن قراءة **سوسير** مرة أخرى فى إطار العمل التحليلى للتفكيكية، كما هو الشأن فى الماركسية وفى التحليل النفسى، تشد انتباهنا إلى مشكلات الخطاب وتعقيدات المعنى التى تشيع فى الممارسات الثقافية وتتطلب التحليل السيميوطيقى. وتبدو هذه المشاريع التحليلية الثلاثة جميعًا مهتمة على نحو خاص باستغلال دعوى أن المعنى منتَج وليس معطًى، وأن اللعب الذى تقوم به اختلافات الدال يشكل المدلولات. والمحاولة التى تظهر فى كل هذه المجالات أن المعانى أو الحقائق التى ربما ملنا إلى فهمها على أنها معطى هى نتاج النظم السيميوطيقية – هذه المحاولة كانت وسيلة فعالة لإزالة الالتباس وللتحليل.

النتائج:

كتب الفيلسوف إرنست كاسيرر يقول: «فى تاريخ العلم أجمع ربما لم يكن هناك فعل أكثر إثارة من ذلك المتمثل فى قيام «العلم الجديد» الخاص باللسانيات. ويمكن مقارنته حقًا من حيث أهميته بالعلم الجديد الذى ينسب إلى جاليليو، الذى غير فى القرن السابع عشر تصورنا الكامل للعالم الطبيعى»[1]. وقد حاولت أن أجمل دور **فرديناند دى سوسير** فى نشأة علم اللغة الحديث، وأن أشير إلى السبب فى أن ذلك الفعل كان مثيراً فى التاريخ الفكرى الحديث. ولكن المقارنة الجريئة التى أجراها **كاسيرر**

(1) Stucturalism in Modern Linguistics," Word I (1945), 99.

بين علم اللغة الحديث والعلم الجديد المنسوب إلى **جاليليو** أصعب من أن تقوم. فماذا يعنى هذا، وكيف يمكن إثبات صحته؟

بالنسبة إلى **كاسيرر** كان الجانب الحاسم والثورى فى علم اللغة الحديث هو إصرار **سوسير** على أولية العلاقات ونظم العلاقات. وهنا تبدو نظرية **سوسير** فى اللغة فى تصوراتها الأساسية وفروضها المنهجية، تعبيراً بالغ الوضوح عن الاستراتيجيات الشكلية التى عن طريقها عدلت سلسلة كاملة من الحقول المعرفية من نفسها، بدءاً من علم الطبيعة وانتهاء بفن التصوير، وصارت حديثة، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وفى غاية من البساطة يمكن تعيين هذه الاستراتيجية بوصفها نقلاً لمركز الاهتمام من الأشياء إلى العلاقات؛ فالعلاقات هى التى توجد الأشياء وتحددها، وليس العكس. وقد أدلى فيلسوف العلوم **ألفرد نورث هوايتهد** بتصريح عام يتعلق بالمشكلة، يقول فيه: «إن سوء الفهم الذى لازم أدبيات الفلسفة عبر القرون يتمثل فى فكرة «الوجود المستقل»؛ فليس هناك طراز من الوجود على هذا النحو؛ وكل كينونة يتعين أن تفهم على أساس الطريقة التى تدخل بها فى نسيج بقية الكون». وقد بين فى كتابه المسمى **العلم والعالم الحديث** Science and the Modern World (١٩٢٥) أن الكشوف الجديدة فى العلم قد جلبت كثيراً من التعقيدات، حتى إن النقلة الأساسية فى المنظور صارت ضرورية إذا ما كان يتعين على الحقول المعرفية المختلفة أن تتوافق مع نفسها ومع الأشياء. وقد اكتشف علم الطبيعة انه كان من الصعوبة بمكان شرح الكهرباء والظواهر الكهربائية المغناطيسية على أساس من عناصر المادة المنفصل بعضها عن بعض وعن حركتها. وقد بدا أن الحل يكمن فى نقض المشكلة؛ فبدلاً من أن تكون للمادة الأهمية الأولى، ومن محاولة تحديد القوانين التى تحكم سلوكها، ما الذى يمنع من النظر إلى الطاقة ذاتها، اى الطاقة الكهربية، على أساس أن لها الأهمية الأولى، وتحديد المادة على أساس من القوى الكهربية المغناطيسية؟ وقد أفضى هذاالتغير فى المنظور إلى اكتشاف أمور علمية جديدة؛ فالإلكترون ليس كينونة موجبة بالمعنى القديم، ولكنه نتاج حقل من القوة، أو

مفصل فى نظام من العلاقات، كما أنه لا يوجد – شأنه شأن الصوتم (الفونيم) – مستقلاً عن هذه العلاقات.

إن ما يسميه **هوايتهد** « مادية » القرن التاسع عشر، أو الاتجاه التجريبى الذى أضفى على الأشياء أولوية وجودية (أنطولوجية)، يتراجع – كما يقول – ليفسح المجال لـ« **نظرية فى النسبية** » بأوسع معانى الكلمة؛ وهى نظرية تقوم على أساس أولوية العلاقات. وقد كتب **هوايتهد** يقول: « بناء على النظرية المادية هنالك المادة التى يكتب لها البقاء؛ وبناء على النظرية العضوية تتمثل حالات البقاء الوحيدة فى بنيات القوة المحركة ». وهنا يكون الاهتمام بالبنيات؛ « فالواقعة تكون على ما هى عليه نتيجة لاتحاد عدد كبير من العلاقات من خلالها »؛ أما خارج نظم العلاقات هذه فهى لا شىء.

ويذكر **سوسير** بطبيعة الحال هذه الموضوعات فى وضوح، لا بوصفها جوانب من رؤية للعالم واسعة النطاق، ولكن بوصفها فروضًا منهجية تكون لازمة إذا ما تعين تحليل اللغة تحليلاً سليمًا. وبإزاء الأمور المؤكدة عند **سوسير** يمكن وضع التصريح الواضح للمصور **جورج براك** Georges Braque، الذى يقول فيه: « إننى لا أؤمن بالأشياء؛ إننى أؤمن بالعلاقات ». وربما كان هذا هو العقيدة الحداثية الحقيقية؛ فماذا تكون التكعيبية إذا لم تكن تأكيداً لأولية العلاقات؟ ففى التصاوير التكعيبية تفقد الأشياء أوليتها التى لم تكن حتى هذه اللحظة موضع تساؤل؛ فهذه الأشياء تبرز للعيان فى صعوبة خلال التفاعل بين الخطوط والمسطحات؛ إذ إن الفراغ ذا الأبعاد الثلاثة، الذى يدعم الأشياء العادية، يتهاوى فى محاولة لتمثيل جملة متنوعة من المنظورات والعلاقات فى وقت واحد. ومن جهة أخرى يستطيع المرء أن يلاحظ فى الأدب الحديث النقلة التى عن طريقها أصبح الشعر وأصبحت الرواية كلاهما أقل احتفالاً بالمحاكاة المباشرة للأشياء، وأقل عناية بتمثيل الأشياء والمشاهد التى يمكن تمييزها، وأكثر اهتمامًا بالآثار الناشئة عن تجاور الأشياء، حيث تصبح القيم الناشئة عن العلاقات – وهى العلاقات القائمة بين الكلمات أو بين أنماط مختلفة من الخطاب – تصبح المكونات الأولية للعمل الفنى.

وقد أدت التغيرات فى مجال التقنية، التى وقعت فى حقول أو نظم معرفية مختلفة،

إلى التركيز على نظم العلاقة. وهذا هو أساس دعوى **كاسيرر** المعلنة؛ وفحواها أن العالم كما يتمثله الفكر فى قرننا الحالى لم يعد أساسًا مجموعة من الكينونات المستقلة، أى الأشياء ذات الاستقلال الذاتى، ولكنه جملة من النظم القائمة على العلاقات.

وهذه النقلة من الشىء إلى البنية هى بحق نقلة فى تصورنا للعالم، ولكن ليس من الواضح إلى أى مدى ينبغى لدور **جاليليو** أن ينتهى إلى **سوسير** وإلى علم اللغة السوسيرى. ومن وجهة النظر التاريخية تبدو نظرية **سوسير** فى اللغة تعبيرًا واضحًا كل الوضوح عن نقلة حدثت متزامنة فى جملة متنوعة من الحقول، وإن كان ذلك على نحو أقل صراحة؛ فهى تعبير أو مثل أكثر منها سببا أوليًا. والواقع أنه يبدو من المحتمل أنه إذا كان يتعين فى أى وقت أن يأخذ **سوسير** دور **جاليليو** القرن العشرين، فسوف يعتمد حقه فى هذا الموقع على الحقل المعرفى وطراز الفكر الذى كان هو نفسه أداة فاعلة حقًا فى تأسيسه، أى السيميوطيقا. ذلك بأن تهيئتنا لأن نرى فى الحياة الاجتماعية وفى الثقافة بعامة جملة من نظم العلامة التى يسعفنا النموذج اللغوى فى تحليلها، تعد إضافة يمكن أن تجعله آخر الأمر شبيهًا بجاليليو.

ولكن الأوان لم يؤن بطبيعة الحال للحكم على أهمية سوسير فى التاريخ الفكرى لقرننا الحالى، لأن العمل فى حقل السيميوطيقا لم يبدأ إلا منذ عهد قريب، وما زال من غير الواضح حتى الآن ما إذا كانت السيميوطيقا ستصبح حقًا حركة مهيمنة فى زماننا. فإذا صار لها حقًا وجود أساسى، أى صارت حقلاً معرفيا مركزيًا، فسوف يرجع هذا إلى جهود كثير من الناس إلى جوار **سوسير**؛ ولكن بصره بسيميولوجيا تشمل علم اللغة، فى الوقت الذى تتخذ فيه علم اللغة نفسه نموذجًا لها، قد أفضى بآخرين إلى صياغة المنظور السيميوطيقى صياغة عينية؛ فنحن نعيش وسط العلامات، ولابد لنا من أن نحاول لا أن ندرك معناها فحسب، بل أن نفهم كذلك على وجه الخصوص الأعراف التى تحدد معناها. و**سوسير** هو الذى يساند الدعوى التى قد يعتنقها اليوم كثير من الناس، القائلة إن دراسة البشر هى أساسًا دراسة للنظم المختلفة التى بمقتضاها تنظم ثقافتنا العالم وتمنحه المعنى، وتنتج الموضوعات الإنسانية.

ثبت المصطلحات

agglutination	الإلصاق
algorithm	الحساب الرمزى
alliteration	الجناس الاستهلالى
anagrams	التقاليب والتباديل
analogy	القياس
anomalous	الشاذ
anthropology	علم الإنسان
arbitrary	اعتباطى
archaic	مهجور
archaisms	الاستعمالات المهجورة
associative relations	العلاقات الترابطية
atemporal	بمعزل عن الزمان
binary oppositions	تعارضات ثنائية
code	شفرة
collective norm	معيار جمعى
communicative context	سياق تواصلى
competence	الكفاءة

condensation	التكثيف
construct	بنية تصورية
continuum	كيان متصل ومستمر
deconstruction	التفكيك
diacritical	تمييزى
diachronic	تاريخى (تعاقبى)
differential	تخالفى
displacement	الإزاحة
ecological	بيئى
entity	كينونة
etymology	علم أصول الكلمات
exchange-value	القيمة الاستبدالية
form	صيغة – شكل
glossematics	المنهج الشرحى
hierarchial	تراتبى
historicity	التاريخانية
hypogram	توزيع الحروف
icon	صورة
identity	هوية – تماثل – حقيقة

indice	مؤشر
institution	مؤسسة
intuition	حدس
langue	اللسان
linguistics	العلوم اللسانية (علم اللغة)
logocentrism	مركزية العقل
metalinguistic	مجاوز للغة
modernist	حداثى
modernity	الحداثة
morphological	صرفى
motivation	تبرير
nasal sonans	الأصوات الأنفية
natural selection	الانتخاب الطبيعى
neologisms	الاستخدامات المحدثة
nomenclature	سجل
onomtopoeia	المحاكاة الصوتية
panchronic	تاريخى عام
paradigmatic relations	العلاقات التبادلية
parole	الكلام

pattern	قالب – طراز
performance	الأداء
phonetics	علم الأصوات اللغوية
phonocentrism	مركزية الصوت
phonology	علم الصوت
problematic	إشكالى
relational	تعالقى
repression	الكبت
schema	مخطط
semanlysis	تحليل الدلالات الإشارية والرمزية
semiotics	علم العلامات
sign	العلامة
signans (signifier)	الدال
signatum (signified)	المدلول
signification	الدلالة – المعنى
sign-systems	نظم العلامة
sonant coefficient	المعامل الصوتى
speech act	الفعل الكلامى
substance	المادة

superstructuralism	البنيوية الفوقية
synchronic	وصفى – تزامنى
syntactic rules	القواعد النحوية
syntagmatic	سياقى
syntagmatic relations	العلاقات السياقية
syntax	التركيب النحوى
teleology	الغائية
traces	آثار
transsubjective	مجاوز للذات
transcendental signified	المدلول المتعالى
unconscious	اللاشعور
unit	وحدة – عنصر
use-value	القيمة الاستخدامية
utterances	الملفوظات
vocal mechanisms	آليات صوتية
vowel	حرف اللين